سِلْسِلَةُ الدِّرَاسَاتِ القُرْآنِيَّة
١

النَّصْرُ الإِلَهِيُّ وَسُنَنُه

دِرَاسَةٌ قُرْآنِيَّةٌ

وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُه

د . محمد محمود مرتضى

مركز براثا للدراسات والبحوث
Baratha Center for Studies and Research

النَّصْرُ الإلهِيِّ وسُنَنُه

دراسةٌ قرآنيةٌ

◆ رقم الطبعة: الأولى
◆ تاريخ الطبعة: ٢٠٢٤ م - ١٤٤٥هـ
◆ مكان الطبعة: بيروت - بغداد

الآراء المطروحة لا تعبر عن رأي المركز بالضرورة

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

Baratha Center for Studies and Research
www.barathacenter.com
barathacenter@gmail.com

سِلْسِلَةُ الدِّرَاسَاتِ القُرْآنِيَّة ١

النَّصْرُ الإِلَهِيُّ وَسُنَنُهُ
دِرَاسَةٌ قُرْآنِيَّةٌ

د . محمّد محمود مرتضى

مَرْكَزُ بَرَاثَا للدِّرَاسَاتِ وَالبُحُوثِ
بَيْرُوتُ ـ بَغْدَادُ

سِلْسِلَةُ الدِّرَاسَاتِ القُرْآنِيّة

يَتخطّى النصُ القرآنيَ كَونَه أحد مَصَادر التشريع الإسلاميّ واستنباط الفتوى، مع التسليم بأهميّة هذا الدور؛ ولئن كان التراثُ التفسيريّ يُحاولُ تنزيل النصّ القرآنيّ على مُشكلات الواقع فَي منظورها الأوسع في مجالات السياسة والاجتماع والفلسفة، إلا أنّنا في (مركز براثا للدراسات والبحوث) شخّصنا حاجةَ المجتمع الإسلاميّ إلى مستوى أعمق من الاتصال بعلوم القرآن، تبدأ من إشاعة الثقافة القرآنيّة كمنهج معرفيّ وأسلوب حياة وطريقة تفكير، ومنْ ثَمّ قررنا تبيين المباني القرآنيّة لكلّ قضايا الفكر ومناحي الحياة في قِبال نظَيرتها الغربية الماديّة أو الالتقاطيّة.

نُحاولُ في هذه السلْسلة تطوير فهم المتلقي حول القرآن باعتباره كتاب هداية، وحاويًا على منهج حياة ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾، وتوفير الأرضيّة التي من شأنها تعميق الدرس القرآنيّ، ونقد الدراسات الأخرى عن المعرفة، والإجابة عن الأسئلة الفكريّة والتحدّيات الاجتماعيّة التي تلحّ على العلماء انطلاقًا من أرضيّة القرآن؛ فعن الإمام الصادق (ع) أنّه قال: "إنّ القرآن حيّ لم يمت، وإنّه يجري ما يجري الليل والنهار، وكما تجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أوّلنا". وعن الإمام الصادق (ع) أنّه قال: "كتاب اللّه فيه نبأ ما قبلكم و خبر ما بعدكم و فصل ما بينكم و نحن نعلمه."

ومن خلال (سلْسلَة الدِّراسات القرآنيّة) نفتحُ مساحةً للتثاقف العلميّ المُنصف والنقد البنّاء للرؤى الاستشراقيّة والغربيّة، ونحاول تقديم إجابات على الشبهات المطروحة، والتي أهمها شبهة أن القرآن نصٌّ تاريخي لم يعُد صالحًا لظروف العصر، فنثبت بالدّليل العلميّ وبالمصاديق العمليَّة كلام أمير المؤمنين (ع): "... وإنّ القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق, لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولا تنكشف الظلمات إلّا به».

■ المقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً وسبحان الله بكرة واصيلا، وصلاة وسلامه على رسوله الذي بعثه بالحق شاهدا ومبشرا ونذيرا، وهاديا باذته وسراجا منيرا، وعلى آله الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

من الواضح مدى اتساع الحديث عن مفهوم النصر في الفكر الإسلاميّ، كما أنّ هذا المفهوم هو من المفاهيم التي وردت كثيراً في الكتاب والسنّة. وهناك العديد من النقاشات التي تتمحور حول المفهوم موضوع البحث، وما يتعلق به وصلته بالله ولاعتباره غاية وهدفًا أم أنّه عبارة عن طريقة من أجل تحقيق أمر آخر مهما كان هذا الأمر، وهل هو من نعم الله أم نتيجة للمجهود البشري. واستناداً إلى أنه أحد النعم فما القوانين التي يكون خاضع لها ويتحقّق على أساسها أو يتم الإسراع في تحقيقه أو يتم تأخيره بل يتم حرمان الإنسان منه؟. وأخيراً ما الآفات التي بإمكانها أن

تطال النصر وتعمل على إبطال تأثيره؟
تلك الأسئلة وسواها الكثير ستكون موضع الاهتمام في الكتاب الحالي؛ بالبحث والتدقيق والمقارنة والاستنتاج، وذلك اعتماداً على الآيات القرآنية الكريمة التي تناولت موضوع النصر وما يتعلق به من دلالات ومعان بشكل أساسي، وبمنهجية علمية تقوم بالجمع فيما بين العمق العلميّ في الاستدلال و المضمون.

والحمد الله رب العالمين

الفصل الأول

النصر في القرآن الكريم
(مفرداته ودلالاته المعجمية)

يعدُّ القرآن الكريم المرجع الأساسي لكل ما يتعلق بالمفاهيم والمصطلحات والألفاظ الخاصة التي استخدمها في حديثه عن مفهوم النصر مع كل متعلّقاته الفكرية والمفهومية.. والنصرُ مفهوم مركزي مرتبط رمزياً وعضوياً بمفهوم قرآني آخر وهو الجهاد.. وبلغت أهمية مفهوم النصر في الإسلام حداً أن جعله -في بعض النصوص القرآنية والحديثية- صنواً وعدلاً لمفهوم قرآني آخر وهو الشهادة، كما في قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ**﴾[سورة التوبة: ٥٢]، ..ومن المعروف-بحسب كثير من التفاسير- أنَّ «الحسنيين المذكورتان في الآية الكريمة المذكورة آنفاً، هما نتيجتان وعاقبتان من نتائج القتال والجهاد في سبيل الله، فإمّا هي غلبة ونصر من الله تعالى، وإما هي شهادة مؤدّية إلى الجنّة»[١]. ووفق تعبير آخر مفسرّ ما يُقصد من الحسنيين هو: «أحد العاقبتين والتي كلّ واحدة منهما هي حُسنى العواقب، وهما: النصرة والشهادة»[٢].

١ - حسن بن محمد الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج٥، ص٢٣٥.
٢ - الفضل بن الحسن الطبرسي، تفسير جوامع الجامع، ج١، ص٢٠٦.

هذا فقد تم تفسير الآية بشكل آخر فيها بالإمكان ان تُدرج ضمن الباب الخاص بالتأويل وأن يطبق المفهوم على المصاديق خاصته.

● أولاً- الغلبة:

١. الغلبة في القرآن:

وردت كلمة «الغلبة» في القرآن الكريم في آيات كثيرة، قارب عددها حوالي الثلاثين مرة، وجاء استخدامها في معنى يرتبط مباشرة بمحلّ كلامنا عن مادّة «غلب» ومشتقّاتها. وتعددت الصيغ التي وردت فيها الكلمة، فقد وردت بصيغة الفعل، وصيغة الصفة لله تعالى ورسله وحزبه، كذلك تم ورود صفة لأُناس آخرين.. ومن تلك الموارد:

قال الله تعالى:

■ ﴿...كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة: ٢٤٩].

■ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ﴾[آل عمران: ١٢]

■ ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٧٤].

■ ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾[الروم: ٢-٣].

■ ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[المائدة: ٥٦].

ويجدر بنا أن نشير هنا -قبل أن ندخل في عملية تحليل هذه الكلمة والدلالات اللغويّة المتعلقة بها- إلى أنّها لم يتم ورودها في وصف ممن لا يكون الله راضٍ عن سلوكياتهم و مواقفهم ، إلاّ ضمن سياق هم يتمنّوا أن يُغلبوا ، حيث يعبرّ الله تعالى عن ذلك بطريقةٍ تشعرُ بعدم رضاه بذلك، أو تحقيق تلك الأمنية لأجلهم، يقول عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[فصّلت: ٢٦]. حيث يلاحظ هنا كيف جاء التعبير بـــ»لعلّ» كدلالة واضحة على التشكيك والريبة في وصولهم لمثل هذا.

٢. المعنى اللغوي للغلبة والغلب:

في بيـان معنى هذا المفهـوم لغوياً واصطلاحياً، يمكـن الرجوع لعدد من المعاجـم اللغويـة.. حيث توقّف علـماء اللغة عند هذه المفـردة، وقاموا بشرحهـا كالآتي: وإن مؤلـف مُعجم مقاييـس اللغة يقـول: «غلب أصل صحيح يدلّ على قوّة وقهر وشدّة...»[1]. ويقول صاحب كتاب الاشتقاق: «غلب يغلِب فهو غالبٌ» ولا يقوم بإضافة شيء على ذلك يتم فيه توضيح

١ - أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة (مادة غلب).

معنى الكلمة[١]. والمصطفوي يؤكد -في نتيجة ما يصل إليه بعد أن يقوم بنقل بضعة كلمات من علماء اللغة ممن سبقوه- على أن الواحد في المادّة هو التفوّق مع وجود الإمكانية والقدرة، أو تفوّق في قدرةٍ.. وأمّا القهر والاستيلاء والغلظة وغيرها، فهي من لوازم الأصل[٢].

● ثانياً- الفتح:

١. لفظ الفتح في القرآن الكريم:

وتأتي أيضاً كلمة «فتح» ومشتقّاتها اللغوية، ككلمة من نفس جنس ومناخ حديث القرآن الكريم عن النصر، وقد وردت هذه الكلمة في آيات قرآنية عديدة، منها قوله تعالى:

■ **﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾**[النساء: ١٤١].

■ **﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾**[المائدة: ٥٢].

■ **﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾**[الفتح: ٢-٣].

---

١ - انظر: ابن دريد، الاشتقاق، مادّة: «غلب».

٢ - حسن مصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن، ج٧، ص٣٠٢.

■ ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح: ١٨].

٢. المعنى اللغوي لكلمة الفتح:

الفتح لغةً بحسب أحمد ابن فارس هو أصل صحيح يدلّ على خلاف الإغلاق. يُقال: فتحت الباب وغيره فتحًا، ثمّ يُحمل على هذا سائر ما في هذا البناء فالفتح والفُتاحة: الحكم. والله تعالى الفاتح أي الحاكم.. إلخ[١]. ويقول الراغب الأصفهاني بأن الفتح إزالة الإغلاق والإشكال. وذلك ضربان: أحدهما: يدرَك بالبصر، كفتح القفل. والثاني: يدرَك بالبصيرة كفتح الهمّ. وذلك ضروبٌ: أحدها في الأمور الدنيويّة... والثاني فتح المستغلَق من العلوم. وقوله تعالى: ﴿**إنّا فتحنا لك فتحًا مبينًا**﴾، قيل عنى فتح مكّة وقيل فتح ما يُستغلق من العلوم...[٢].. وأخيرًا فإن المصطفوي يستنتج بأن الجوهر الواحد في المادة هو ما يقابل السد والإغلاق والحجب، ويختلف هذا المعنى باختلاف الموضوعات والموارد في البعدين المادي والمعنوي... فالفتح المطلق، كما ورد في قول الله تعالى: ﴿**إنّا فتحنا لك فتحًا مبينًا ليغفر لك الله...**﴾، يراد

١ - أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، مادّة: «فتح».
٢ - الحسين بن محمد (الراغب الأصفهاني)، المفردات في غريب القرآن، مادّة: «فتح»، الدار الشامية.

مطلق الفتح بكليته في طول مسيرة الرسالة وإبلاغ الأحكام الإلهيّة وإجراء وظائف النبوّة ، برفع الموانع المعنويّة و الماديّة والكشف عن المغلقات وإزالة الأسداد، ثمّ التقوية والنصر.. والنصر قد يكون من مقدّمات الفتح في مرتبة الإيجاد لا الإبقاء، كما جاء في: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾، و﴿**نصر من الله وفتح قريب**﴾...»[1].

● **ثالثاً- الفوز في القرآن الكريم:**

ونأتي إلى مصطلح أو كلمة أخرى وهي كلمة «الفوز»، وما يمكنُ أن يُشتقّ منها ويتفرع عنها من مواضيع، ممّا استخدمه القرآن الكريم في تعبيره عن هذا الاشتغال الفكري الذي نحن بصدده هنا، هو سنن النصر في كتاب الله..

ويمكن أن نورد هنا هذه الآية الكريمة التي استخدمت كلمة «الفوز» بشكل مباشر، حيث يتحدث تعالى عن بعض المتقاعسين والمتخلّفين عن الجهاد في سبيله، يقول الله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا**﴾[النساء: ٧٣].. فالآية تعطينا نتيجة عمل وفعل المجاهدين في سبيل إعلاء كلمة الله، وهي «الفوز العظيم».. ينبغي أن نشير إلى أنّ هذه الآية تعدُّ المورد الوحيد مما استُعملت هذه الكلمة فيه بهذا المعنى.

---

١ - حسن مصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج ٩، ص ١٥-١٦.

إن استعمال القرآن الكريم لكلمة الفوز بشكل متكرر وبكثرة، جاء في إطار حديثه عن قضية الفوز بأشكال متعددة، منها: الفوز والدخول للجنّة[١]، والنجاة من النار[٢]، وطاعة الله ورسوله[٣].

● رابعاً- كلمة الظفر في القرآن الكريم:

وردت كلمة «الظفر» مرة واحدة في القرآن الكريم، والآية التي أوردتها هي: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[الفتح: ٢٤]. وعلى الرغم من أنها لم ترد سوى مرة واحدة في كتاب الله، لكنّ علماء اللغة لم يهملوها، بالعكس ركزوا عليها، وتوسعوا في شرحها.. والظفر بحسب الفيومي تأتي من باب تعب، والأصل هو الفوز والفلاح...[٤]. ويقول صاحب المفردات: «الظُّفر: يُقال في الإنسان وفي غيره، ويعبرّ عن السلاح به، تشبيهًا بظفر الطائر؛ إذ هو بمنزلة السلاح. والظَّفَر: الفوز وأصله من ظَفَره أي نشب ظُفره فيه»[٥]. وتلك

---

١ - وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

٢ - كما في قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (سورة غافر: الآية ٩) بناء على تفسير الوقاية من السيّئات بالنجاة من العذاب يوم القيامة. انظر: السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٧، ص ٣٠٧.

٣ - وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٧١].

٤ - أحمد بن محمد الفيومي، المصباح المنير، المكتبة العلمية، مادة «ظفر».

٥ - الحسين بن محمد (الراغب الأصفهاني)، المفردات في غريب القرآن، مادّة: «ظفر».

إشارة تتسم بالذكاء من الراغب تقوم بالكشف عن لفتة جميلة للربط فيما بين المعنيين.

● **خامساً- كلمة ظهر في القرآن الكريم:**

إن مشتقات هذه الكلمة وردت في عدة آيات قرآنية لا ترتبط جميعها بالبحث الحالي ، وما يتصل بموضوعنا هو البعض منها فقط. ونكتفي بأن نذكر بعض الموارد كنماذج وأمثلة:

قال عزّ من قائل: ﴿**كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ**﴾[التوبة: ٨].

﴿**هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾[التوبة:٣٣].

﴿**هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا**﴾[الفتح: ٢٨].

ويقول ابن فارس في شرح هذه الكلمة: «ظهر: أصلٌ صحيحٌ واحد يدلّ على قوّة وبروز، من ذلك ظهر الشيء يظهر ظهورًا، فهو ظاهرٌ، إذا انكشف وبرز؛ ولذلك سُمِّي وقت الظهر والظهيرة، وهو أظهر أوقات النهار وأضوؤها... والظهور الغلبة»[1]. وبعد أن قام بنقل عددٍ من كلمات

١ - أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، مادّة: «ظهر».

المتخصصين في اللغة يستنتج صاحب التحقيق في النهاية أنّ: «الأصل الواحد في هذه المادّة هو: مطلق بدوّ في قبال البطون، بأيّ كيفيّة كان... والظهور تختلفُ خواصّه باختلاف [من أو ما يتّصف به]، إلخ..»[1].

● **سادساً- مفردة النصر في القرآن الكريم:**

ذكر القرآن الكريم كلمة النصر عشرات المرّات، وجاء ذكرها بمعان ودلالات وسياقات متعددة ومختلفة كالدعاء، وكالكشف عن المنّ الإلهيّ على المؤمنين، وغير ذلك.. ومن الأمثلة-النماذج التي وردت فيها هذه الكلمة في كتاب الله:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾[البقرة: ٢١٤].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[محمد: ٧].

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[آل عمران: ١٢٦].

والواضح من الآيات السابقة أنَّ هناك عدة صيغ وردت فيها كلمة أو مادة «النصر»، كصيغة «اسم الفاعل» إلى صيغة فعل مبني للمجهول

---

١ - حسن مصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن، ج٧، ص٢١٧-٢٢٣.

والمعلوم.. وقد اهتم علماء اللغة بهذه المادة.. وقد اهتم علماء اللغة بهذه المادة «النصر» اهتماماً بالغاً.. فها هو اللغوي بن فارس يقول في قاموسه: «نـصر: أصل صحيح يدلّ على إتيان خير وإيتائه. ونصر الله المسـلمين: آتاهم الظفر على عدوّهم. وانتصر: انتقم، وهو منه... والنصر العطاء»[1].

..هذا ويمكننا عـدّ ما تقدّم من تحليل لغوي اصطلاحـي تمهيداً معجميّاً عن المفردات التي استخدمها الله تعالى في كتابه الكريم، وذلك من أجل التعبير عن ما نحن بصدد الحديث عنه، وهو سنن النصر القرآنية..

لهذا، وبما أن محور دراسـتنا هذه هو البحث في موضوع النصر، كان لا بدّ من ان نخصص له ببحث وتحليل منفصل، يتم فيه تسـليط مزيد من الضوء عليه.. والسبب في هذا التخصيص لمادة النصر، وجود عدة اعتبارات، هي:

١ - تعد كلمة «النصر» الكلمة أو المفردة الوحيدة تقريباً التي يتم استخدامها في المحاورات الحديثة من أجل أن نعبرِّ عن هذا المجال.

٢ - ورود كلمة «النصر» في القرآن الكريم بشكل أكثر من سواها (ولعشرات المـرات) من الكلمات والمفردات والألفاظ الأخـرى، وهذا أمر لا نعاينه في غيرها من المفردات المشابهة.

٣ - تعدد دلالات هذا المفهوم القرآني وتنوع معانيه ومعطياته أكثر من غيره من المفاهيم المشابهة..

---

١ - أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، مادّة: «نصر».

● **سابعاً- عندما يكون البلاء طريق النصر:**

لا شك بأن كلمة الله عز وجل جرت على ابتلاء وامتحان (اختبار) البشر بمختلف أشكال وألوان المحن والشدائد، وذلك ليتمكّن من التمييز بين الجيد من السيء ويتبين الصابر وغيره كما يقول عز وجل: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ**﴾.. إلى غير ذلك من الآيات الكريمة العديدة، فإذا قلت بأن حقيقة الاختبار هو العملُ على طلبِ الخبر بالشيء وعلمه للذي لا يعرفه والله سبحانه عارف بما هو موجود في قلوب البشر وما يخفى من الغيب، فالمطيع في علمه هو متميِّز من الشخص العاصي، وهنا السؤال: ما الذي قد يعنيه الاختبار في حقّه؟ نجيب ونؤكد على أن معنى اختباره تعالى يأتي من أجل أن يعلم غيره من خلقه، من يجب عليه أن يطيع أو أن يعصي.. ويتميز عنده ذلك فهو من باب الكناية، لكون التميّز هو من لوازم الاختبار وعوارضه.

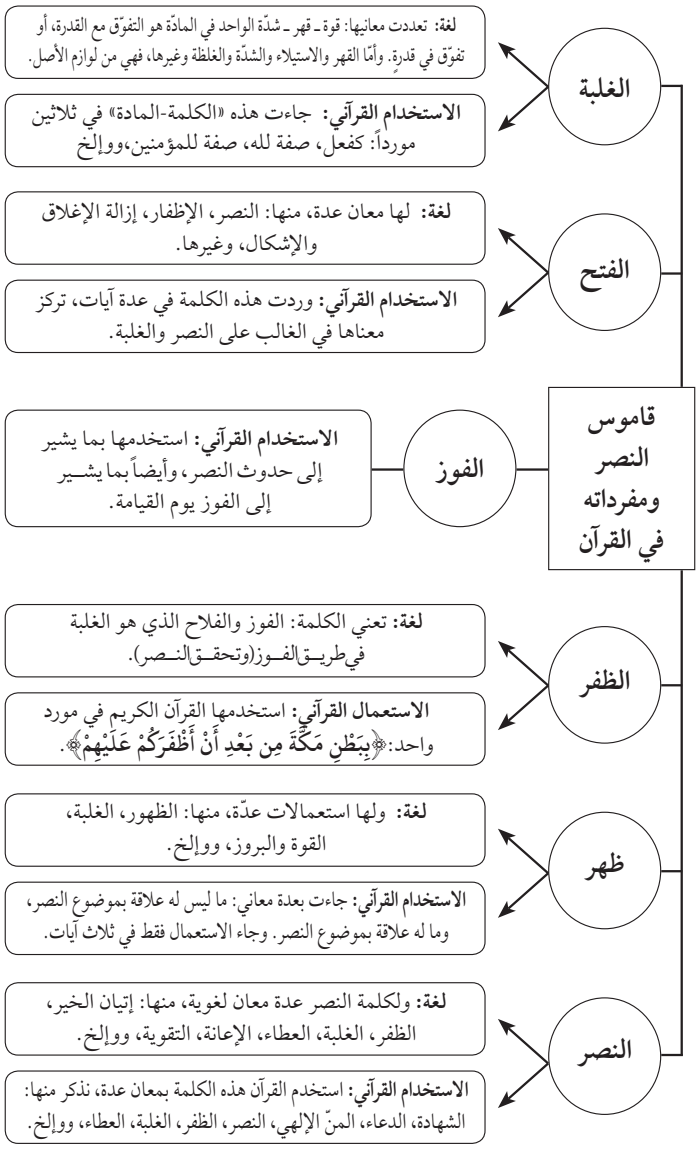

قاموس النصر ومفرداته في القرآن

الغلبة

لغة: تعددت معانيها: قوة ـ قهر ـ شدّة الواحد في المادّة هو التفوّق مع القدرة، أو تفوّق في قدرةٍ. وأمّا القهر والاستيلاء والشدّة والغلظة وغيرها، فهي من لوازم الأصل.

الاستخدام القرآني: جاءت هذه «الكلمة-المادة» في ثلاثين مورداً: كفعل، صفة لله، صفة للمؤمنين،ووإلخ

الفتح

لغة: لها معان عدة، منها: النصر، الإظفار، إزالة الإغلاق والإشكال، وغيرها.

الاستخدام القرآني: وردت هذه الكلمة في عدة آيات، تركز معناها في الغالب على النصر والغلبة.

الفوز

الاستخدام القرآني: استخدمها بما يشير إلى حدوث النصر، وأيضاً بما يشير إلى الفوز يوم القيامة.

الظفر

لغة: تعني الكلمة: الفوز والفلاح الذي هو الغلبة في طريق الفوز (وتحقق النصر).

الاستعمال القرآني: استخدمها القرآن الكريم في مورد واحد: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

ظهر

لغة: ولها استعمالات عدّة، منها: الظهور، الغلبة، القوة والبروز، ووإلخ.

الاستخدام القرآني: جاءت بعدة معاني: ما ليس له علاقة بموضوع النصر، وما له علاقة بموضوع النصر. وجاء الاستعمال فقط في ثلاث آيات.

النصر

لغة: ولكلمة النصر عدة معان لغوية، منها: إتيان الخير، الظفر، الغلبة، العطاء، الإعانة، التقوية، ووإلخ.

الاستخدام القرآني: استخدم القرآن هذه الكلمة بمعان عدة، نذكر منها: الشهادة، الدعاء، المنّ الإلهي، النصر، الظفر، الغلبة، العطاء، ووإلخ.

الفصل الثاني

النصر في القرآن الكريم
(مفهوم ومصطلح)

يمكننا أن نستنتج مما تقدم أن مفهوم «النصر»، الوارد بسياقات ومعان مختلفة في القرآن الكريم، هو من المفاهيم الأساسيّة التي حظيت باهتمام إسلامي قرآني بالغ.. إذ أنه على الرغم من وجود حالة تشابه في المعاني التي وردت واستُخدِمت فيها هذه الكلمة في القرآن الكريم، إلا أنّه كان بينها مستوًى مّا من الاختلاف والتمايز، بما يتطلب ويستدعي التوقّف عندها، لأنّ توضيح هذه الفروقات تدبّرٌ في القرآن الكريم من ناحية، وعملٌ بقول الله عزّ وجلّ: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾[ص: ٢٩]، وإن فهم هذه الاختلافات لها أثر في توضيح موضوع البحث الحالي.

● أولاً- معاني النصر ودلالاته في القرآن الكريم:

وردت كلمة أو مفهوم النصر بعدة معاني، هي:

١ - **الحماية والدفع:** حيث استُخدِمت الكلمة بهذا المعنى مرّات عدة، وفي أكثر من سياق.. وربمّا جاء أكثرها في إطار وسياق تهديد الكافرين أو العاصين، بأنه لا أحد يملك القدرة لحمايتهم من العذاب الإلهي الواقع عليهم.. وأمثلة ذلك في القرآن كثير، منها:

أ- نفي الحماية من عذاب الآخرة: هذا المعنى ورد في كثير من الآيات القرآنية

منها: ﴿**يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ**﴾[الدخان: ٤١]. ومن ذلك أيضاً قوله سبحانه: ﴿**يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ**﴾[الطور: ٤٦].. حيث يخبرنا ويعطينا الله تعالى فكرة عن حتميّة عذاب الآخرة لمستحقّيه، وعدم قدرة أيٍّ كان عن تخفيف هذا العذاب أو دفعه عمّن يستحقّه بالذات، ولا مجال لاستبداله بغيره إن لم يشاء الله تعالى ذلك.

ب- عدم القدرة الذاتيّة على رفع العذاب: أوردَ القرآن الكريم في قصّة النبيّ نوح(ع) أنّ قومه طلبوا منه إبعاد بعض المقرّبين (ممن آمنوا به)، وذلك بحجّة أنّهم أراذل القوم[١]، فما كان من نوح إلا أن طلب منهم التدخل لحمايته من آثار هذا الطرد، ودفع العذاب الإلهيّ عنه، في حال وافق على طرد هؤلاء المؤمنين المحيطين: يقول تعالى: ﴿**وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**﴾[هود: ٣٠]. وفي هذا الآية نفي وتوضيح أنه لا يوجد قدرة لدى أحد على حماية نوحٍ(ع) من عذاب الله ودفعه عنه، إنْ هو خالفَ إرادةَ الله، وذلك في استجابته لما طلبه الكفّار ممن كانوا يأنفون من مجالسة ضعفاء القوم وأفقرهم. أي أنه استفهام في معنى النفي[٢]. والموقف الرسولي القاطع والحاسم نفسه يتكرّر من النبيّ صالح(ع) في معرض رده على قومه عندما أعلنوا إحباطهم وسأمهم من

١ - انظر: سورة هود: ٢٧.

٢ - للاطلاع على كلام المفسّرين على هذه الآية انظر: محمد حسن الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٠، ص٢٠٨؛ الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع **البيان** في تفسير القرآن، ج٥، ص٢٦٦.

إصرارهم على ترغيبه ودعوته في الميل لدينهم[١].

٢ - الانتقام والثأر: جاءت كلمة «نصر» بمعنى «الانتقام» في عدة آيات، مثل الآية: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ**﴾[الشعراء: ٢٢٧]. كما أوردها القرآنُ في سياق حديثه عن الشعراء الذين كانوا يتحاملون على النبيّ الكريم(ص) ويهجونه، الأمر الذي واجهه المسلمون بالسلاح نفسه، منتصرين لرسولهم ولأنفسهم[٢]. ومن الأمثلة على استخدام هذه المادّة بهذا المعنى يعني الانتقام قوله سبحانه: ﴿**وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ**﴾[الشورى: ٤١].

٣ - العون والمساعدة: وهي أيضاً من المعاني التي تم التعبير فيها عن مادة النصر.. حيث لاحظنا أن عدداً من علماء اللغة نصّوا على هذا المعنى أثناء تعرضهم إلى هذه الكلمة في المعاجم اللغوية، بحسب ما أوردناه سابقاً.. ونزيد الأمر وضوحاً هنا، فنشير إلى العديد من أقوال المتخصصين في اللغة، من بينهم على سبيل المثال ، قال ابن منظور: «النصر: إعانة المظلوم؛ نصره على عدوّه ينصره ونصره ينصر نصرًا... والاسم النُّصرة... والأنصار أنصار النبيّ (صلى الله عليه وآله) غلبت عليهم الصفة فجرى

---

1 - ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِيمِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ**﴾[سورة هود: الآية 63].

٢ - انظر: الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع **البيان** في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٣٦٠.

مجرى الأسماء... وتناصروا: نصر بعضهم بعضًا»[١].

والجدير ذكره هنا أن بعض علماء اللغة توقّف عند قول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾[الحجّ: ١٥]، حيث جعلها إحدى شواهد استعمال هذه المادة في هذا المعنى، فيقول: «قوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ﴾ ويعينه في الدنيا والآخرة ويغيظه أن يظفر بمطلوبه...»[٢].. وإذا عدنا إلى القرآن الكريم من أجل إحصاء المعاني التي تستعمل فيها هذه المادّة نرى أنّ الجزء الأكبر من موارد استعمالها هو في هذا السياق، وهناك عدة نماذج تقوم بتأييد هذه الدعوى:

قال الله تعالى:

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ﴾[التوبة: ٤٠].

﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾[الصافات: ١١٦].

﴿ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾[آل عمران: ٨١].

إلى كثير من الآيات التي كشفت عن استخدام هذه الكلمة بالمعنى الذي

---

١ - جمال الدين ابن منظور، لسان العرب (مادة نصر)، ويشبهه قول أبي بكر الرازي، مختصر الصحاح، ص ٢٣٩. (راجع: محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح).

٢ - فخر الدين الطريحي، مجمع البحرين، ج٣، ص٤٩٤.

يفيد المساعدة والعون.

وهناك إحصاء قرآني -ربما يكون دقيقاً- يشير إلى عدد المرات التي استخدم فيها القرآن الكريم هذه الكلمة، وهي بحدود مائة وخمسين مرة، من المحتمل أنه كان أكثر من نصفها يدل على المعنى الأخير. وفي عدد كبير من الموارد المتبقية هو الاحتمال الأرجح.

وأما عن الفرق الواقع بين كلمة النصر ومشتقاتها من جهة وبين كلمة العون من جهة أخرى، فإن النصرة لا تكون إلا على المنازع المغالب والخصم المناوئ المشاغب، والإعانة تكون على ذلك وعلى غيره؛ تقول أعانه على من غالبه ونازعه ونصره عليه وأعانه على فقره إذا أعطاه ما يعينه وأعانه على الأحمال. ولا يقال نصره على ذلك فالإعانة عامة والنصرة خاصة. والفرق بين النصر والمعونة: النصر: يختص بالمعونة على الأعداء. والمعونة: عامة في كل شيء. فكل نصر معونة ولا ينعكس...[1].

٤ - **الغلبة والظفر:** وهو المعنى الرابع الذي تُستخدم فيها كلمة «نصر» ومشتقّاتها، وهو يفيد بالتغلّب على العدوّ والظفر عليه، وهو المعنى يتبادر إلى الذهن عندما تُسمع كلمة «نصر» والمشتقات الخاصة بها في العصر الحالي فيما بين أهل العرب.. ومن الممكن أن يتم فهم هذا المعنى من بعض آيات القرآن الكريم والتي ذكرت فيها كلمة

١ - الحسن بن عبد العسكري، الفروق اللغويّة، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ص ٥٤٠.

نصر. ومن الأمثلة على ذلك قوله سبحانه: ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ**﴾[الأنفال: ١٠]. وإذا ما تتبعنا أقوال وشروحات المفسّرين فسنجد أنهم يعتقدون أنّ هذه الكلمة إنما تدلّ على المعنى الأخير هذا.. فها هو صاحب تفسير الميزان (السيد الطباطبائي) يقول في شرح الآية الإشارة إليها في الأعلى: «بيان انحصار حقيقة النصر فيه تعالى، وأنّه لو كان بكثرة العدد والقوّة والشوكة كانت الدائرة يومئذ للمشركين بما لهم من الكثرة والقوّة على المسلمين على ما بهم من القلّة والضعف»[١].

● ثانياً- المعنى الجوهري للنصر:

في نهاية بحثنا اللغوي عن مادة النصر، قد يسأل أحدهم سؤالاً حول أنه هل بالإمكان أن يرد عدد من هذه المعاني إلى بعضها الآخر؟! في الإجابة يمكنُ القول بأنّ البحث والتأمل في موارد استخدام هذه الكلمة في القرآن الكريم بالحدّ الأدنى، يمكن أن يوصلنا إلى أنّ الأصل فيها هو «العون» الذي يأتي لتحقيق هدفٍ ما، والوصول إلى غايةٍ ما، ولو من خلال مناخ أو حالة المغالبة والخصام؛ فإذا تحقّقت الغاية وأتت ثمارها النصرة والمساعدة ثمرتهما قيل عن الحالة الجديدة والتي تترتّب عليهما نصراً، بدل من أن يُقال غلبة أو ظفراً أو ما يتشابه معهما من الكلمات التي تعود بالفائدة على هذا المعنى.

---

١ - محمد حسن الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ٩، ص ٢١؛ وانظر أيضًا: ج٤، ص٩.

طبعاً لا بد من الإشارة هنا -استكمالاً للبحث اللغوي- أن هناك من علماء اللغة من يفرّق ويميز بين مصطلحين، وهما: المصدر واسم المصدر. حيث يعرّفون المصدر بأنّه: ما دلّ على الحدث بعد تجريده عن الزمن. أي الفعل يدلّ على حدوث الحدث في زمنٍ معين مثل الحاضر أو الماضي أو المستقبل. ومثال ذلك في ما نحن عليه : «نَصَر هو فعل ماض، ينصرُ هو فعل حاضر، انصرْ يدل على المستقبل.. هذا وفق المعنى بينما وفق اللفظ فإنهم يشترطون في المصدر أن تتوافر به أحرف الفعل ولا يُحذف منها أي شيءٌ من دون التعويض عنه. وبينما لو تم حذف بعض الأحرف وكانت الكلمة تدل على الحديث فإنها تكون اسم مصدرٍ. على سبيل المثال: توضّأ ووضوء (اسم مصدر). وبناء على هذا يتّحد المصدر واسم المصدر في المعنى ويختلفان في عدد الأحرف فحسب»[1]. هذا ولكن هناك من يفرّق بين الأمرين بأنَّ المصدر هو ما يدلّ على الحدث بينما اسمه يدلّ على نتيجة الفعل والحدث. وفي ما نحن عليه فإنّ الإعانة والمدد يقودان إلى نتيجة ألا وهي الفوز، «فعمليّة الإعانة نفسها تُسمّى نصرًا ونصرةً فهي مصدرٌ. بينما النتيجة التي تفضي إليها هذه الإعانة هي تحقق النصر كنتيجة وأثر ومآل، ويدعى اسم مصدر»[2].

---

١ - انظر مثلاً: عبد الله العقيلي، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ج ٢، ص ٩٨.

٢ - هذا وقد يخالف كثير من علماء النحو واللغة العربية في هذا الأمر. وزيادة التدقيق في هذا المبحث تحتاج إلى بحث تخصّصيّ ليس هذا محلّه. للمزيد انظر: عباس حسن، النحو الوافي، ج٣، ص٢٠٨؛ مصطفى جمال الدين، البحث النحوي عند الأصوليّين، ص٩٨-١١٤.

● **ثالثاً- في حقيقة النصر وبعض مصاديقه العملية:**

نستنتج ممّا تقدّم أنّ النصر هو المدد والعون بحسب اللغة، ولكن شاع بكثرة استخدام هذه الكلمة في النتيجة الإيجابيّة التي يؤدي إليها هذا المدد العوني. ولكن ينبغي أن يكون واضحاً ابتداءً من هذه اللحظة فصاعداً أنّ هذا التمييز بين المعنيين لا يمكن اعتباره مهمّاً إلى درجة عظيمة في المجال الذي نحن بصدد الحديث عنه، وذلك لأنّ مسألة حصول المدد والعون من الله تعالى، بشكلٍ غيبيّ أو من خلال مظهر ماديّ طبيعي، هي مسألة تعني أنه مدد وعون سيتحقق فيه النصر حتماً، وسوف يحقّق أهدافه عادةً، بشرط ألا يضيّع الإنسان هذا العون، ولا ويفرّط فيه لسبب أو لآخر.

وهنا ثمة سؤال يجب طرحه في مثل هذه الموارد، وهو: في أية ظروف ومواقع يمكن أن يتحقق النصر؟!.. والسؤال لا يبحث عن شروط النصر وممهداته ومقدماته؛ بقدر ما يبحث عن الوضعيّة المفترض أنْ تتجسّد (وتتحقّق) حتّى يصح القول: أن الجهة التي تواجه وتجاهد وتناضل انتصرت وفازت؟!

● **رابعاً- أهداف الحرب والجهاد وغايتهما:**

لا بدّ لكلّ عملٍ يقومُ به الإنسان أنْ يكونَ ذا غايةٍ وهدف، سواء كانَ جهداً أو جهاداً أو حتى حرباً.. ونحن هنا نتحدث بطبيعة الحال عن إنسان، أو جماعة إنسانيّة، تتصف بالحكمة والعقلانية، بما يحتّم أنْ تكونَ أفعالها وحركاتها وسكناتها غائية وهادفةً بعيدة عن العبثيّة واللغو.. حيث

يمكن بالتالي اعتمادُ الغاية الدافعة و الهدف إلى الحراك كمعيارٍ من أجل التمييز فيما بين الهزيمة و النصر.

والجهاد كركن من أركان الإسلام، متنوع الأهداف والغايات، وذلك بناءً على طبيعة بحسب الأسباب والدوافع التي تدفع إلى التحرك في سبيل ن تتحقق الغاية التي يؤدي إليها القتال الجهادي.. وبالعودة إلى تجارب الجهاد التي خاضتها الأمة في تاريخها منذ أيام الرسول الكريم(ص) والأئمة الأطهار(ع)، مروراً بكثير من الانتفاضات والنّهضات والثورات التي تفجرت على أيادي مصلحين كبار، يمكن توثيق الأنماط والأنواع الآتية من مفهوم الجهاد:

١. في الهجوم والمبادرة الهجومية:

مما لا شك فيه أن مفهوم «الجهاد الابتدائيّ» خضع -في منطلقاته ونتائجه- لنقاشات فقهية لاحقة كثيرة، وذلك بسبب وضعها أو تصنيفها ضمن حالة أو دائرة الجهاد الابتدائيّ أو الدفاعيّ، ولكننا لن ندخل هنا في إعادة دراستها وتحليلها، إذ أن لها محلاً آخر. وما يعنينا هنا -في بحثنا هذا- هو تحليل مفهوم النصر لجهة أنّ النصر في الجهاد الابتدائيّ يتم قياسه بدرجة تحقّق الأهداف التي حددها الإمام (القائد) من هذه المعركة أو تلك، في طبيعة المقاصد والغايات والأهداف المتصوّرة الكثيرة المتوخاة، ومن أهمّها: دفع خطرٍ محدقٍ (وهو ما يُعرف حالياً بالحروب الاستباقيّة)،

وأن يفتح الباب في وجه الدعوة، وإزالة الظلم عن البشر التي تعيش في ظلمِ حاكمٍ متعسّف جائر..

ولهذا عندما تتحقق تلك الأهداف في نهاية المعركة نكون وصلنا لغاية النصر، وإلا فالهزيمة هي غاية انتهى القتال إليها. وبعودة سريعة إلى مجمل تاريخ الأمّة الإسلاميّة، فإننا سنجد أنّ عدداً لا يستهان به من المعارك والحروب التي خاضها المسلمون، انتهى بالنصر والذي كاناً تأسيساً لانتصارات تالية فتحت الأبواب على مصراعيها في طريق الدعوة الإسلاميّة. ويمكن القول هنا أن معركة بدرٍ -التي خاضها المسلمون زمن الرسول- هي المثال الأبرز والنموذج الأوضح لمثل هذا النوع من معارك «الجهاد الابتدائيّ».

٢. في الدفاع:

ويتحقّقُ هذا المفهوم عندما تصبحُ الأمة (إسلاماً ومسلمين) في دائرة الاستهداف والخطر الداهم الذي يجبُ دفعه بأيّ شكلٍ، ومهما علت وزادت التضحيات.. حيث أنه في مثل هذه الحالة، يتجسد ويتحقق هدف النصر واقعاً ملموساً حال تمكّن الأمة من إعاقة تقدم هذا الخطر المحدق بالأمة.

ويمكن أن نقدم في تاريخنا الإسلامي أمثلة واضحة على تحقق مثل هذا النوع من النصر، وذلك مثلما جرى في معركة الخندق التي أوشك فيها

المشركون بعد محاصرتهم المدينة على اقتحامها، ومحاولتهم إسقاط الدعوة الفتية في مهدها.. ولكن المدد الإلهي وبطولات المسلمين وتضحياتهم وعلى الرأس منها بطولة أمير المؤمنين الإمام علي(ع)، وكوكبة من أصحابه، قلبت معادلة الهزيمة المتحققة في تلك المعركة إلى نصر مؤزر، عندما تمّ إيقاف المشركين وإعاقتهم، وتحولت نتيجة المعركة لصالح المسلمين.. وقد وثّق لنا القرآن الكريم تلك المعركة في قوله تعالى: ﴿**إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**﴾[الأحزاب: ١٠]، وقوله تعالى ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا**﴾[الأحزاب: ٩]. ويمكن القول هنا، أن مجرد صمود المسلمين في وجه العدو، ومنعه من تحقيق أغراضه، كان بحد ذاته نصراً دون أدنى شك.. وهذا ما يمكن أن نتابعه ونعاينه في عصرنا الحالي من خلال المواجهات الكبيرة التي خاضتها المقاومة الإسلاميّة ضد الكيان الصهيوني الغاصب، حيث شكل صمودها وثبات مجاهديها، واستعدادهم الدائم، أكبر حاجز ومانع لتحقيق أهداف العدو.

- **خامساً- النصر في المدى الزمني البعيد:**

من المعروف أن الإسلام دين عالمي لم يأت خصيصاً لبقعة جغرافية محددة، بل هو دعوة عالمية للبشرية جمعاء في كل زمان ومكان، وغايته تكمن في تحقق قيمة العدل والعيش بحرية وكرامة لأي شعب من شعوب

هذه الأرض.. بمعنى أنه ليس دين جغرافيا، بل هو دين قيم ومبادئ إنسانية، يسعى لتحققها في أي مكان، بما يتفق وينسجم مع منظومته العقائدية والقيمية الإلهية التي شرعها تعالى كمنهاج حياتي.. وهنا نلاحظ أنّ الله تعالى لا يقبل أي عذر لمن يحاول الاعتذار والتلطي وراء الضغوط التي تفضي إلى حالة الاستضعاف: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا**﴾[النساء: ٩٧]. وبناء على هذه النظرة إلى الحياة و الأرض ، يعتبر الإسلام أنه حتى لو تمكن العدو في مرحلة ما من تحقيق بعض غاياته وأغراضه المادية القريبة في السيطرة والهيمنة، فإنّ النصر سيكون حتماً (وهذه سنة تاريخية قرآنية) من نصيب المواجه والصامد على المدى الزمني الطويل..

ويمكن أن نعطي هنا أوضح الأمثلة والنماذج التاريخية على ذلك، وهو نموذج الإمام الحسين(عليه السلام)، فهو رفض الخنوع والخضوع، وأبى أن يعطي إعطاء العبيد الأذلاء، بل وقف موقف الشهامة والكرامة والقيم الإنسانية النبيلة، معلناً صرخته المدوية الهادرة الخالدة في امتداد الأيام والأزمان: «هيهات منّا الذلّة»، فاستُشهد ولكنّه بقي حيّاً منارة شموخ وكبرياء للأحرار جميعاً ومشعلاً متوهجاً مضيئاً على مدى التاريخ كله.. صحيح أن يزيد حقق مراده في الحكم والسلطة، ولكنه فشل وعجز كلياً عن إذلال الحسين، فكانت الثورات والانتصارات اللاحقة، وكان أنه(ع) حقّق ما سعى إليه وهو التصدي لواجب الإصلاح في واقع الأمّة، وهي هنا أمة الرسول

الكريم(صلّى الله عليه وآله).. من هنا نلاحظ كيف أنه(عليه السلام) يُعبّر عن هذا النصر بصورة بليغة وبالغة إذ يقول: «من لحق بي استُشهد، ومن تخلّف عنّي لم يبلغ الفتح»[1]. وهي كلمة بليغة وبالغة الوضوح، وتعني أن الفتح (النصر) سيكون من نصيبنا ونصيب حلفائنا وأخواننا، حتى لو نال العدو من جسدنا، واستشهدنا، ولن ينال هذا الشرف من أدار ظهره، وتخلّف عنّا..

● سادساً- عقد العزم على الثبات والمواجهة:

تقدم لنا معركة أحد -التي خسر فيها المسلمون- مثالاً مهماً للدراسة والتحليل، فيما يتعلق بموضوع النصر وعقد العزم على المواجهة والثبات.. إذ أنه بعيد انتهاء المعركة رجع المشركون المنتصرون إلى مكة بشكل سريع، ولكنّ بدا لهم في الطريق، ألا يتركوا هذا الانتصار من دون أن إكماله وجعله ساحقاً، ففكروا أنه من الأفضل لهم العودة للمدينة، ليبدؤوا في نهبها وإلحاق مزيد من ضربات الهزيمة بالمسلمين، وفكروا أن يقتلوا محمداً (ص)، فينتهوا من الإسلام والمسلمين دفعة واحدة.. وفعلاً لم يكذب المشركون الخبر، فقد صدرت الأوامر بالعودة إلى المدينة، والخطورة هنا كانت تكمن في أن العدو منتصر معنوياً ومادياً، وهو في أعلى مراحل زهوه الروحي والعسكري.. ولما تم تبليغ خبر العودة إلى النبي الكريم(ص)، أخذ

---

١ - محمد بن جرير الطبري، دلائل الإمامة، ص ١٨٨.

بزمام المبادرة، ومنع تحقق غاية المشركين، وفي هذه المرحلة الحسّاسة نزلت الوحي بالآيات التالية: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾ لتدعيم روحية المسلمين وترفع من معنوياتهم، وفي أعقاب ذلك تم صدور أمر من قبل النبي إلى المسلمين بأن يستعدوا لمقابلة المشركين، فتهيَّأ المسلمين كافة حتى المجروحين -ومنهم الإمام علي (عليه السلام) الذي حمل في جسده أكثر من ستين جراحة)- لمقابلة المشركين، وخرجوا جميعهم من المدينة لذلك. فبلغ هذا الخبر مسامع أسياد قريش فأخافتهم هذه المعنوية المرتفعة التي يتَّسم المسلمون بها واعتقدوا أنّ أفراد جدد التحقوا بالمسلمين، وهذا بإمكانه تغيير نتائج المواجهه الجديدة لمصلحة المسلمين، ولذا قرروا أن يعدلوا عن قرارهم بخصوص الهجوم على المدينة، من أجل أن يحافظوا على قوتهم، وهكذا قفلوا عائدين إلى مكة بشكل سريع، و القضية انتهت عند هذا الحد»[1].

١ - ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٢، ص٦٧٧.

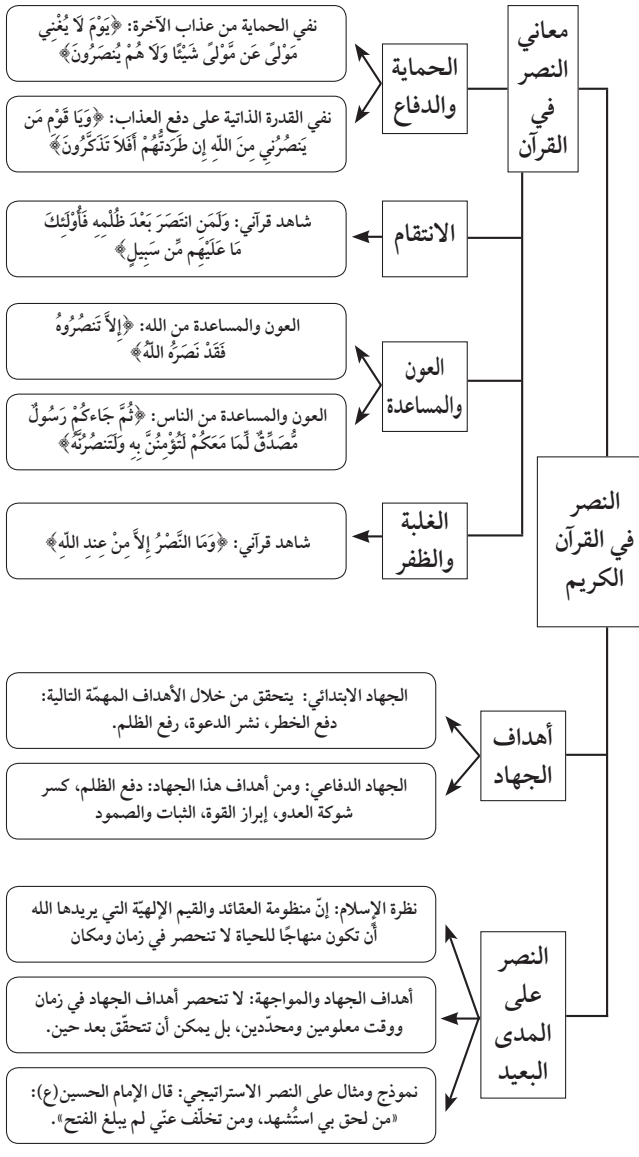
النصر في القرآن الكريم
معاني النصر في القرآن
الحماية والدفاع
نفي الحماية من عذاب الآخرة: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾
نفي القدرة الذاتية على دفع العذاب: ﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾
الانتقام
شاهد قرآني: وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾
العون والمساعدة
العون والمساعدة من الله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾
العون والمساعدة من الناس: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾
الغلبة والظفر
شاهد قرآني: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾
أهداف الجهاد
الجهاد الابتدائي: يتحقق من خلال الأهداف المهمّة التالية: دفع الخطر، نشر الدعوة، رفع الظلم.
الجهاد الدفاعي: ومن أهداف هذا الجهاد: دفع الظلم، كسر شوكة العدو، إبراز القوة، الثبات والصمود
النصر على المدى البعيد
نظرة الإسلام: إنّ منظومة العقائد والقيم الإلهيّة التي يريدها الله أن تكون منهاجًا للحياة لا تنحصر في زمان ومكان
أهداف الجهاد والمواجهة: لا تنحصر أهداف الجهاد في زمان ووقت معلومين ومحدّدين، بل يمكن أن تتحقّق بعد حين.
نموذج ومثال على النصر الاستراتيجي: قال الإمام الحسين(ع): «من لحق بي استُشهد، ومن تخلّف عنّي لم يبلغ الفتح».

الفصل الثالث

موقع النّصر في ذهنية المجاهدين وحساباتهم

بعد أن أوضحنا سابقاً معنى مفهوم «النصر»، ووقفنا على أنواعه، والأوضاع التي بإمكان أي من طرفي المعركة ادَّعاء النصر، يتبادر إلينا سؤال إشكالي مهم، حول موقع النصر في ذهنية وحسابات من يخوض المعركة؟ وهل ينبغي أن يكون النصر -في حسابات المعركة- مضموناً، إلى أن تتقلَّد الدولة الإسلامية أو المسلم السيف لمجابهة الأعداء أو أنه لا يُشترط ذلك؟!..

لا شك بأن من واجب المسلم خوض المعركة للدفاع عن حياض الإسلام والمسلمين، ولا شك أيضاً بأن خوضها يتطلب دراسة واقعية دقيقة لإمكانات العدو ومعرفة عميقة بما يملكه من نقاط قوة ونقاط ضعف، ولكن هذا كله لا يعني -في حال كانت إمكانات العدة كبيرة وجهوزيته عالية- اشتراط تحقق النصر لخوض المعركة خاصة في المجال الدفاعي..

ولمزيدٍ من الدقة والتعمق في فهم الموضوع، نقف عند الحالات المتعلقة بالجهاد الآنفة الذكر لنشاهد موقع النصر منها.. و أوّلاً نبدأ بإشارة أوليّة، لنقارن ونقوم فيها بتحديد نظرة الإسلام إلى النصر..

● **أولاً- قيمة ومعنى «إحدى الحسنيين» الواردة في كتاب الله:**

يقول عز وجل: ﴿**قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ**

﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾[سورة التوبة: الآية ٥٢]. وتكشف هذه الآية بكل وضوح عن مكان النصر في حسابات أرباح وخسائر الجهاد ، بشكل عالٍ، إذ إنَّ المفسرين اتفقوا أنّ المقصود من الحسنيين في الآية هو واحدة من النتيجتين اللتين بالإمكان أن تنتهي إليهما أيّة معركة يخوضها المسلمون مع عدوّهم.. فإمّا هو نصرٌ وغلبة، أو شهادةٌ وفوزٌ عظيم بلقاء الله تعالى.

معان أخرى للآية:

ويمكننا هنا التوسع في تقديم مجموعة معان أخرى نستفيدها من هذه الآية:

١ - وجود تباين واختلاف كبير بين نظرة المؤمنين ونظرة غيرهم إلى الأمور.. إذا بينما يرى المنافق أو الكافر -مثلاً- أنّ الفوز ليس له من معنى سوى الفوز المادي والكسب الدنيويّ والسيطرة على العباد والبلاد، والهيمنة على الموارد والغنائم، يرى المؤمن -انطلاقاً من وعيه الديني المسؤول وشرعة الله تعالى- أنّ المهمّ هو أداء الواجب والبقاء ضمن دائرة وعهدة التكليف الشرعي.. فسواء عنده الهزيمة أو النصر عندما كلٌّ منهما يكون في طاعة الله. وهذا يذكّرنا بقول أمير المؤمنين عليّ(ع) في خطبة المتّقين: «نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ»[1]. كما يذكّر بالقول المنسوب إلى أكثر من شخص، منهم عمّار بن ياسر عندما دنت منه المنيّة، فطلب شيئًا من الشراب فأُتي به فتذكّر وعد النبيّ (صلى الله عليه وآله) إيّاه

١ - ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة للإمام علي(ع)، خطبة المتّقين.

بأن آخر نصيبه من الدنيا كأس من اللبن، ثُمَّ قَالَ: «وَاللَّهِ لَوْ هَزَمُونَا حَتَّى يُبْلِغُوا بنَا سَعَفَاتِ هَجَرَ لَعَلِمْنَا أَنَّا عَلَى الحَقِّ، وَأَنَّهُمْ عَلَى البَاطِلِ»[١].

٢ - العقيدة الإسلامية تقوم على التوحيد والإيمان بالله تعالى كعلة للكون والوجود والاحياة، والإنسان المسلم يدرك ويؤمن بأن الكون كله، خاضع لإرادة الله تعالى، وأنّه وعد بنصرة أهل الإيمان والخير والصلاح.. هذا الإيمان وتلك القناعة الراسخة بالله تعالى لا يمكن أن تدفع المؤمن للاعتراض على مشيئة الله تعالى، والشك بقضائه وقدره حتى لو تسببت ظروف ما بتحقق نصر استثنائي للعدو.. لأن المؤمن يستعذب أمرّ الخيارات، ويرى أنها جميلة طالما تخضع إلى إرادة الله عزّ وجلّ.. وما أقرب القولين المشهورين الذي يُنسب واحد منهما إلى الحسين(ع) بعدما استشهد ابنه الطفل الرضيع وهو بين يديه فقال: «هوّن ما نزلَ بي أنّه بعينِ الله»، والآخر المنسوب إلى السيدة زينب (عليها السلام) عندما هتفت في وجه ابن زياد قائلةً: «ما رأيتُ إلا جميلاً، هؤلاء قوم كتبَ اللهُ عليهم القتل، فبرزوا إلى مَضاجعهم...»[٢]. نعم القتل في سبيل الله -في عين زينب- جميل، يشابه لجوء من يشعر بالنعاس إلى فراشه. نعم، الشهادة في سبيل الله هي -في موازين الحكمة الإلهية- إحدى الحسنيين. أي أنه مثل النصر، فمن يستشهد في سبيل الله يتحقق عنده فعل النصر..

---

١ - الشيخ المفيد، الاختصاص، ص١٤.
٢ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج٤٥، ص١١٦.

٣ - الدرس الثالث والذي يُستفاد من الآية هو أنّ الحياة الدنيا لا تستقيم على شكل ولون وأمر واحد، فالحياة لها قوانينها وسننها وعللها، ويجب على الإنسان المؤمن ألا يحسب أنّ الدنيا طوع بنانه وأمره، وأن النصر ملازمه على الدوام.. بل إنّ من واجب المؤمن أن يتوقّع السيء والأسوا، ويحسب حسابات خيارات الهبوط وليس فقط الصعود، وأهمُّ مقياس في نظره هو نهاية المطاف وعاقبة الأمور، وإنْ على المدى البعيد. بمعنى أنه يجب على المؤمن أن ينظر للأمور كلها نظرة كلية شاملة بعيدة عن المحدودية والنظرة الضيقة، فالنصر الذي قد يحققه المنافق في الدنيا مرّ العاقبة، والشهادة التي يحظى بها المؤمن هي واحدة من الحسنيين.. ولهذا فقد ينقلب دم مراق إلى فوز ونصرٍ مؤزر يروي بستان الأهداف ولو بعد زمن.. ومن هنا ورد عن الإمام أبي جعفر الصادق (عليه السلام) في تفسيره لهذه الآية فقال: «إما موتٌ في طاعة اللّه وإدراك ظهور إمام...»[1].

طبعاً، هناكَ كثير من الإشارات والدلالات التي ترشدنا إليها الآية السابقة، لكننا نكتفي منها بواحدة، وهي الأهم.. وتقولُ بأنّ النصرَ ليسَ شرطاً نهائياً حاسماً ومطلوباً لخوض المعارك ضد الأعداء، خاصّة عندما يكونُ الحديث عن النصر الآنيّ الدنيويّ.

---

١ - محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ص٢٨٦، حديث ٤٣١.

● ثانياً- موقعية النصر في القتال:

هناك مفهومان يميّز الفقهاءُ بينهما، فيما يتعلق بالقتال في سبيلِ الله، وهما: «الجهاد» و«الدفاع». ويختلفُ أحدُ هذين المفهومين عن الآخر في المفهوم، كما في بعض الأحكام. ومعالجتنا هنا لهذين المفهومين تأتي في سياق تبيان موقع النصر من كلٍّ منهما..

١. موقع النصر في الجهاد:

والجهاد هو مفهوم يقصد به عند عدد من الفقهاء الشروع في القتال، من غير أن يكون ذلك بالضرورة ردّاً على هجوم الأعداء على البلاد الإسلامية وتعرّضه لقتالهم. ويلاحظ من كلام البعض من الفقهاء أنّ هذا النوع من الجهاد هو المقصود عندما يتم البحث عن معنى الجهاد وطبيعته وحدوده في المظان الفقهيّة.

وبالعودة إلى الكتب المختصة بالفقه في الإسلام نرى أنّ الفقهاء من المسلمين يكونون مختلفين فيما بينهم في اشتراط تحقيق النصر قبل البدء في القتال. فبعضهم يرى أنّ تحقيق النصر غير ضروري إنَّما بالإمكان بدء القتال مهما كانت موازين القوى بين المسلمين وأعدائهم مختلفة. ومنهم الشيخ الطوسي[١].. وهذه العبارة من الشيخ الطوسي تفيد أنَّ الحربَ ليست مغامرةً وهوايةً؛ إنما ينبغي أن تحدث لغايات سامية، فإن كان النصر غير محرز فلا

١ - أنظر: محمد بن الحسن الطوسي، المبسوط في فقه الإمامة، ج٢، ص٢.

يجب لقائد المسلمين أن يغامر بجنوده ويقحمهم في حربٍ لا منفعة منها.

٢. موقع النصر في الدفاع:

يعرف الدفاع في الفقه الإسلاميّ بأنه القتالُ الحاصل كردٍّ فعلٍ على هجوم يصدر وينطلق أساساً عن العدو في هجومه على بلاد المسلمين.. والواضح أن الفقهاء يتنازلون -في هذا الصنف من الجهاد- عن كثير من الشروط والمعايير التي يذكرونها في الصنف السابق. مثلاً يُشترط بعض من الفقهاء أن يكون الإمام حاضراً وإذنه في الصنف السابق؛ ولكنّهم في هذا النوع أو النمط يتخلون ويتنازلون عن عدة شروط من ضمنها.. وهذا ما يراه الشيخ الطوسي، حيث يعتقد بأن الجهاد مع أئمّة الجور، هو خطأٌ يستحقّ فاعله به الإثم، إلخ[1].

٣. شبهةُ أن الإسلام دين حربي عنفي:

لا بد لنا في ختام هذا البحث من الإشارة إلى أمر غاية في الخطورة، وخطورته الفكرية والرمزية لا تقل عن خطورة المعارك الدموية، وهو تشكيك الفكر الاستشراقي عموماً بفكرة أن الإسلام دين سلام ومحبة، بل يذهبون للقول بأنه فقط وفقط دين قتال و حربٍ ، وذلك بالاعتماد إلى

١ - أنظر: الشيخ محمد بن الحسن الطوسي، النهاية ونكتها، مع تعليقات العلامة الحليّ، ج٢، ص٣.

مفهوم الجهاد الابتدائيّ.. طبعاً يمكننا الرد عليهم في شبهتهم هذه سريعاً من خلال ما يلي:

أ- تؤكدُ أحداث التاريخ الإسلامي -حتى لدى من اطّلعَ عليه ودَرَسَه من غير المسلمين- أن القسم الأكبر من حروب الرسول(ص) كانت حروباً دفاعية بحتة خاضها للدفاع عن بيضة الإسلام في مواجهة المشركين.

ب- وأما تلكَ الحروب التي بدا من ظاهرها أنها حروب ابتدائيّة، أي ابتدأها المسلمون، لم تكن في حقيقتها سوى حروب دفاعية عن حقوق الشعوب التي منعوها من التعرف إلى الإسلام، وبالتالي هي معارك هدفها فتح الأبواب على الإسلام وليس إلى فتح الأراضي والبلدان.

ج- المعروف أن العلاقات الدولية بين الدول والشعوب والمجتمعات لم تبق على حالها، بل تغيّرت في هذا العصر، وتبدّلت في آليات عملها وقوانينها وطبيعة مضامينها السياسية وغير السياسية، وبالتالي فإنّ عدداً من الأحكام التي كانت تطبق سابقاً قد لا يطبق في هذا العصر بالطريقة التي كانت تطبّق فيها سابقاً.

د- وجب التأكيد أن مفهوم ومصطلح «المقاومة» يختزن في داخله، معنى ومفهوم «الدفاع»، بما هو واجب ومسؤولية لصدّ العدوان، والعمل لاستعادة الأرض والتحرير، بكل الوسائل المتاحة وعلى رأسها المقاومة المسلحة.

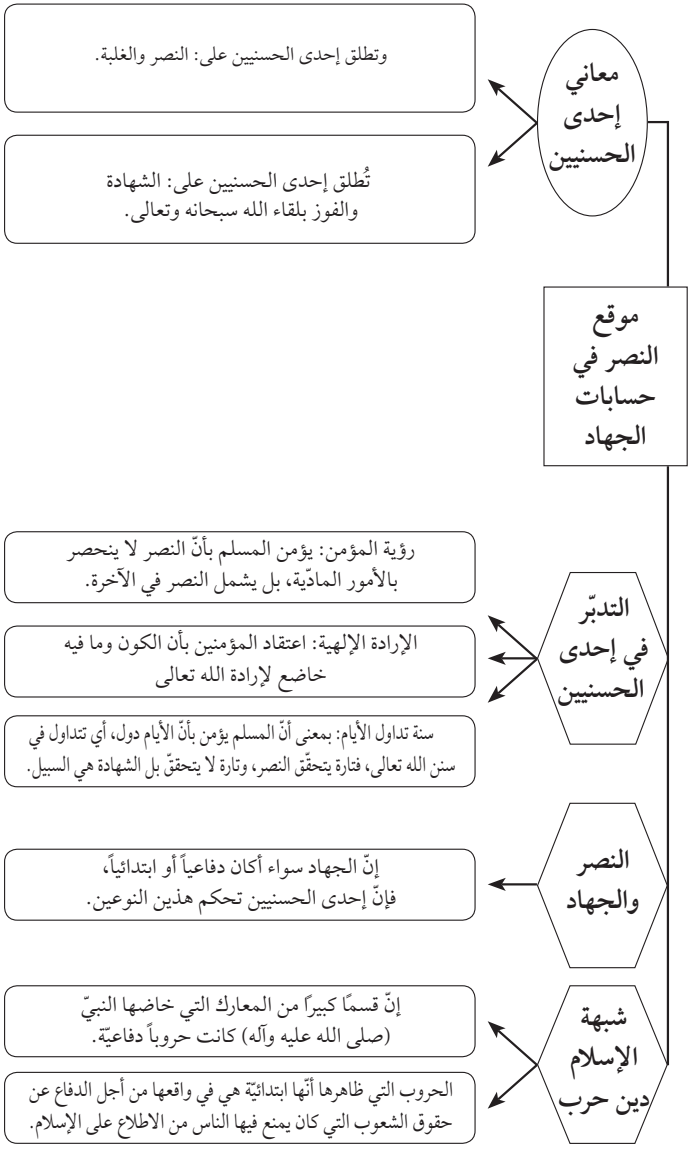
معاني إحدى الحسنيين
وتطلق إحدى الحسنيين على: النصر والغلبة.
تُطلق إحدى الحسنيين على: الشهادة والفوز بلقاء الله سبحانه وتعالى.
موقع النصر في حسابات الجهاد
التدبّر في إحدى الحسنيين
رؤية المؤمن: يؤمن المسلم بأنّ النصر لا ينحصر بالأمور المادّية، بل يشمل النصر في الآخرة.
الإرادة الإلهية: اعتقاد المؤمنين بأن الكون وما فيه خاضع لإرادة الله تعالى
سنة تداول الأيام: بمعنى أنّ المسلم يؤمن بأنّ الأيام دول، أي تتداول في سنن الله تعالى، فتارة يتحقّق النصر، وتارة لا يتحقّق بل الشهادة هي السبيل.
النصر والجهاد
إنّ الجهاد سواء أكان دفاعياً أو ابتدائياً، فإنّ إحدى الحسنيين تحكم هذين النوعين.
شبهة الإسلام دين حرب
إنّ قسمًا كبيرًا من المعارك التي خاضها النبيّ (صلى الله عليه وآله) كانت حروباً دفاعيّة.
الحروب التي ظاهرها أنّها ابتدائيّة هي في واقعها من أجل الدفاع عن حقوق الشعوب التي كان يمنع فيها الناس من الاطلاع على الإسلام.

الفصل الرابع

نسبة النصر إلى اللّه
(في المعنى الفلسفي والعملي)

لا يوجد مسلم ملتزم إلا وينسب النصر لله تعالى في كل معاركه التي يخوضها في سبيل الله ويحقق الفوز فيها.. ويلاحظ أن هذا النقاش اعتلى مختلف المنابر الفكرية والسياسية، وارتفع بحدّة بعد عدوان ٢٠٠٦م الذي شنته آلة الحرب الإسرائيلية ضد لبنان والمقاومة الإسلاميّة.. حيث كثُرت التساؤلات والانتقادات عندما وُصف النصر الذي تحقق بأنّه نصرٌ إلهيٌّ. في الواقع، العقيدة الإسلامية التي هي قاعدة تفكير وسلوك الإنسان المسلم، ومنطلقه التوجيهي العملي، هي التي تقتضي نسبة النصر إلى الله، بل تقتضي نسبة كل ما في الوجود الإمكاني إليه تعالى.. فالعلم والنصر والرزق وغيرها من الأمور هي قائمة فقط بإرادة الله عز وجل يعطيها ويؤتيها لعباده الصالحين المخلصين. والدلائل الداعية إلى الإيمان بهذا الأمر عديدة من القرآن وغيره. وسنستعرض فيما يلي البعض منها:

● أولاً- كيفية نسبة بعض النعم إلى الله كما وردت كتابه العزيز:

١. الرزق:

يحفل القرآن الكريم بآيات كثيرة تتحدث عن الرزق، ولا يمكننا استعراضها كلها، ولهذا سنشير إلى بعضها:

جاء في قوله عز وجل في خطابه لبني إسرائيل: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[البقرة: ٥٧].

وجاء في خطابه تعالى الموجَّه للمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[البقرة: ١٧٢].

وجاء أيضاً في قوله عز من قائل: ﴿وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[البقرة: ٢١٢] ، أنه هو الذي يعطي ويرزق من يشاء من عباده من غير أن يستطيع أي شخص وضع حدود لرزقه.

ويقول في آية كريمة أخرى، داعياً إلى طلب الرزق فقط منه عز وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[فاطر: ٣].

٢. العلم:

ينسب الله تعالى العلم لنفسه في كثير من الآيات، باعتبار أنه هو الذي أنعم به على عباده.. يقول عز وجل: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[البقرة: ٣١-٣٢].

ويخبرنا الله عن بعض عباده ممَّن منّ عليهم بالعلم من لدنه فيقول

سبحانه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[الكهف: ٦٥].

كما ويوصي الله تعالى نبيّه الكريم(ص) بأن يتوجه في طلب العلم إلى الله تعالى، فيقول له: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه: ١١٤].

٣. النعم كلّها:

يورد القرآن الكريم كثيراً من الآيات التي تنسب بعض النعم التي يرفل بها الإنسان إليه عزّ وجلّ، ومن ذلك:

قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان: ٢٠].

قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾[الزمر: ٨].

وأخيراً قال الله سبحانه في مجال النِّعم: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر: ٤٩]. ومن نتائج هذا الفعل من الأفعال الإلهيّة سمّي الله عزّ وجل بـ«المنعم».

● **ثانياً- نسبة النصر إلى الله:**

في استعراض الآيات التي تحدثت عن النصر كنعمة من نعم الله تعلى،

نجد أن هناك آيات حصرت هذه النعمة فقط به تعالى دون غيره.. يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾[الأحزاب: ٩]. حيث أن المراد من النصر -بمعنى من المعاني- هو تقديم العون وإفاضة المدد الذي يمنّ الله به على المؤمنين لتتحقّق لهم النتيجة التي يرجونها منه تعالى في تحقق النصر والفوز.

وجاء في قوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾[آل عمران: ١٢٦] [1]، ما يشيرُ بوضوح إلى حصر فعل النصر والعون به تعالى دون غيره.. ويقول عزّ وجلّ أيضاً: ﴿**وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الصف: ١٣].

١. الدعاء بالنصر وطلبه من الله:

لقد دعت نصوص الأحاديث -خاصة أدبيات الدعاء عند أهل البيت(ع)- على طلب النّعم كلّها من الله، ومنها النصر، وتكتفي بذكر نصّين، هما:

أ. دعاء الافتتاح:

وهو من الأدعية المعروفة والمشهورة التي يحرص المسلمون على قراءتها وأخذ ثوابها خلال ليالي شهر رمضان المبارك.. حيث يردُّ في هذا

---

١ - ؛ وانظر: سورة الأنفال: الآية ١٠.

الدعاء فضل طلب كثير من النعم من الله سبحانه، والنصر أحد هذه النعم.. وقد تكرّر ذكر مفردة النصر (طلب النصر منه تعالى) بأشكال متعددة على الشّكل الآتي في الدعاء للإمام المهديّ عجل الله عز وجل فرجه: «اللهمّ أعزّه واعزز به، وانصره وانتصرَ به، وانصره نصرًا عزيزًا..»[١].

ب. من الصحيفة السجاديّة:

كما ويرد في الصحيفة السّجّاديّة -للإمام علي زين العابدين(ع)- الكثير من الأدعية التي لها صلة بطلب نعمة النصر من الله تعالى، حيث يقول(ع): ﴿وَأَلِّفْ جَمْعَهُمْ۞ وَدَبِّرْ أَمْرَهُمْ۞ وَوَاتِرْ بَيْنَ مِيَرِهِمْ۞...﴾[٢].

٢. التوحيد الأفعالي في موضوعة أن النصر من عنده تعالى:

وهو يعني أنَّ صفحة الوجود كله مكتوبة فقط بإرادة الله تعالى.. فالله تعالى هو علّة الوجود، وهو المحرك الأول في كل شيء ولكلّ الأشياء، «كما أنّ عللها مخلوقة له سبحانه، إذ لا مؤثّر في الوجود سوى الله..»[٣].. وهذا التوحيد هو جزء رئيسي من عقيدة الإمامية.. وتوضيح ذلك أنّ التوحيد استناداً إلى الرؤية الإمامية ينقسم إلى عدّة أقسام وهي:

---

١ - ورد هذا الدعاء الشريف والجليل في كتاب الأدعية المعروف «مفاتيح الجنان، وهو من تأليف الشيخ عباس القمي. (أنظر: مفاتيح الجنان، شركة الأعلمي).

٢ - أنظر: الإمام علي بن الحسين زين العابدين (عليهما السلام)، الصحيفة السجاديّة: من دعائه لأهل الثغور.

٣ - جعفر السبحاني، مفاهيم القرآن، ج١، ص١٤.

أ. التوحيد في مقابل التعدّد: وهذه المرتبة من التوحيد تعني الإيمان بأنّ الله واحدٌ أحد فرد صمد، لا شريك له في الوجود كله.. وهذا النوع من التوحيد هو أقل وأدنى مراتب التوحيد. ويصفُه بعضُ العلماء عنه بأنّه توحيد العامة (أو العوام) من الناس، وذلك لأنّ قدرة الناس جميعهم على إدراكها وفهمها والإيمان بها.

ب. التوحيد في مقابل التركيب: وهذه المرتبة تعني أن الذات الإلهية ليست مركبة من أجزاء، مثل الوجود والماهيّة وغير ذلك. وإنَّ علماء العقيدة يستدلون على هذه الدرجة من التوحيد بأنّ المركّب مكون من أجزاء هو يفتقر إليها ويحتاجها لنقصٍ فيه، في حين أنه عز وجل هو الغنيّ المطلق ولا يحتاج لأجزاء.

ت. التوحيد في مقابل زيادة الصفات: والمقصود من هذه المرتبة أنّ صفات الله عزّ وجل ليست زائدة على الذات؛ لكونها إذا كانت حادثة فهذا معناه وجود زمن لم يكن الله تعالى متصفاً بتلك الصفات، ثم جاء زمن اتصف بها، وهذا يعني بالنتيجة أنه إذا كانت الصفات قديمة فهذا «تعدّد القدماء»، وهو أمر لا يتناسب مطلقاً مع المعنى الحقيقي للتوحيد المعروف في ثوابت العقيدة الإماميّة. وإن كان غير الإمامية يقبلون بهذا المعنى ويؤمنون بما يسمّونه القدماء الثمانية[1].

ث. التوحيد الأفعاليّ: ويقوم على أنّ الله تعالى لا يحتاجُ إلى أحدٍ

١ - انظر: محمد تقي مصباح اليزدي، دروس في العقيدة الإسلامية، ص١٥١-١٥٣.

ليساعدَه على نيلِ ما يريد وتحقيق ما يشاء. وبحسب تعبير الشيخ جعفر سبحاني: التوحيد الأفعالي هو أن نعترف بأنّ العالم بما فيه من العلل والمعاليل، والأسباب والمسبّبات، ما هو إلا فعل الله سبحانه، وأنّ الآثار صادرة عن مؤثّراتها بإرادته ومشيئته، إلخ[١].. وتوجد مرتبة أخرى من التوحيد يحتاج التمييز بينها وبين هذه المرتبة إلى تدقيق ومزيد تفصيل ليس هذا محلّه وهو ما يسمّيه بعض العلماء بـ»التوحيد الاستقلاليّ»[٢].

ولا يمكن التحقق أو إثبات هذه المرتبة من التوحيد إلا بالاعتماد على العقل والدليل الفلسفيّ الصريح، كما يمكن إثباتها بالعودة إلى القرآن الكريم. حيث يستند الدليل العقليّ على تفسير طبيعة العلاقة بين الخالق والمخلوقين، أو فلنقل بين العلّة الموجِدة وبين الموجودات. لأن وجود الممكن وجود رابط وليس وجوداً مستقلاً، وما هو غير مستقلٍّ -في جوهر وجوده وأصالته- لا يمكنُ أن يكونَ مستقلاًّ في تأثيره ونتائجه، بما يعني أنه من الضروري بل واللازم أنّ نتائج (عدم الاستقلال) وآثاره مرهونة للعلة الموجدة ومتوقّفة عليها الموجدة كأصل ثابت في وجوده.

وأما الدليل القرآني، فنشيرُ إلى عدد من الآيات الكريمة، منها:

أ- قوله تعالى: ﴿**وَلَـكِنَّ اللَّه قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ**

١ - الشيخ جعفر سبحاني، مفاهيم القرآن، ج١، ص١٥.

٢ - لمزيد من التفصيل، انظر: الشيخ محمد تقي اليزدي، دروس في العقيدة الإسلامية، ص١٥٥.

اللَّه رَمى﴾[الأنفال: الآية ١٧]، حيث يبيّن الله عز وجل لرسوله(ص) أنّ الفاعلَ في عملية الرمي هو الله تعالى (علة الفعل)، والنتيجة المترتّبة على فعل الرمي ينبغي أن تعود وأن يتم نسبها إليه تعالى، وليس إلى جهود المجاهدين وسواعدهم وبطولاتهم.

أ- جميع الآيات التي تنسب بعض سلوكيات الفرد إلى الله سبحانه، كقوله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ**﴾[الرحمن: ٦٣-٦٤]. ففي هذه الآية نلاحظ أن الله تعالى ينفي عملية الزرع عن الإنسان (الذي قام بالزراعة ظاهرياً)، وينسبه إلى نفسه ولو بصيغة السؤال، كونه هو الفاعل الجوهري والحقيقي.. بما يعني أنه تعالى هو الموجد وهو المؤثّر الأوحد في الوجود، رغم الاعتقاد الظاهري الساذج للإنسان بأنه هو صاحب الفعل سواء فعل الزراعة أو السقاية والنمو ومن ثم الحصاد..

ج- قوله تعالى: ﴿**وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف: ٥٤]. وتشير هذه الآيات -بحسب السيد الطباطبائي- إلى أنّ الربّ هو رب الجميع وهو واحدٌ أحد، وإليه يعود تدبير الكلّ.. بما يقتضي منهم أن يعبدوه ويشكروه.. وتؤكّد الآيات أن توحيد ربّ العالمين من جهتين: إحداهما، أنّه تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض جميعًا، ثم دبّر أمرها بالنظام الأحسن... والثانية، أنّه تعالى هو

الذي يهيّئ لهم الأرزاق بإخراج أنواع الثمرات..[١].. والنظام الكوني كله يقوم على القوانين والعلل والأسباب الجزئية التي لا بد أن تنتهي إلى أسباب كلية حتى تصل إلى العلة الأولى، وهي الله تعالى، مطلق الكون والوجود، المحيط بكل شيء.

إذاً هذه هي الرؤية الحقيقية لقضية التوحيد في الإسلام، وهي رؤية تقوم على أن كل ما في الوجود معلولات للعلة الأولى، ولا يجب بالتالي نسبة أي شيء لغيرها، حتى على مستوى تحقق النصر والزرق وغيرهما من اشتغالات الذات البشرية في الدنيا.. وهذا كله لا يأتي من باب رفع المعنويات للفرد المسلم، والتبرك بالله تعالى، بل يأتي من باب نسبة الأمور لفاعلها بحسب العقيدة الدينية الإسلامية والرؤية الكونية الإسلامية.

٣. معنى إلهيّة النصر.. في القيمة والمبدأ:

هناك نقطة أخيرة وجب التنويه بها والإشارة إليها، وهي أن بعض الأشياء في حياتنا قد تبدو بلا قيمة حقيقية حال وجودها البدئي العادي، كما هي في واقعها الأولي إذا صح التعبير، ولكن قد تصبح ذات أهمية كبرى وقيمة فائقة حال إعطائها أو إحاطتها بصبغة أو مسحة دينية معنوية أو أخلاقية قيمية.. فترفعها من مرتبة إلى أخرى ومن مستوى قيمي بسيط إلى مستوى

---

١ - محمد حسن الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج٨، ص١٤٧.

قيمي أرفع وأسمى وأعلى. ويمكن أن نضرب على هذا الترقّي القيميّ للأشياء -إذا صح التعبير- مثلاً بسيطاً وهو: الورق والحجر ومساحة معيَّنة من الأرض. فالحجرُ هو مجرد شيء ماديّ لا احترام كينوني له ولا قداسة ذاتية فيه، وأما عندما يصبح جزءاً من المسجد الحرام مثلاً، فإنّه يأخذ ويكتسب حالة من القداسة المعنوية العالية ليست موجودة في بقية أنواع الحجارة مهما كانت ومن أين جاءت.. وهكذا الورق يجوز استخدامه في إشعال النار أو استعماله في أمور أخرى، ولكن عندما تقوم بكتابة اسم الله أو آية قرآنية عليه، يتحوّل إلى مصحف، ويكتسب قدسية تحرّم تنجيسه أو إحراقه كما يحرّم لمسه لمن هم ليسوا مطهّرين. وهكذا مثلاً الأرض، كبقعة جغرافية، يجوزُ استعمالُها في مصالح الإنسان مهما كانتْ هذه المصالح وضيعة أو رفيعة، ولكن عندما تتحوّلُ الارض إلى مسجدٍ، تتبدّل أحكامها، ويحرم أن يدخلها الإنسان في عدة حالات، كالجنب والحائض، كما ويحرم تنجيسها، وإذا حصل وتنجّست ينبغي تطهيرها في أقرب وقت قدر الإمكان.

وهكذا الأمر بخصوص النصر، فالنصر حالةٌ أو حدثٌ من الأحداث التي تصيب الإنسان في مواجهاته الحياتية على أكثر من جانب وصعيد ذاتي وموضوعي، وقيمته تأتي أساساً من الغاية الكبرى التي يتحقق في سبيلها.. فإذا كان النصر مطلوباً من أجلِ الله ولإعلاء كلمته وتحقيق قيمه ومبادئه، أي إذا ما استثمر في سبيله كان بلا أدنى نصراً إلهيًّاً، وكانت كلّ قطرة -تم

بذلها في سبيل كسبه- طاهرة مقدسة وفوق كل المعاني والقداسات، ولا بر فوقها مطلقاً.. فالمعنى هو المقدس ومن أجله يُضحَّى ويُستشْهَد، يقول عز وجل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ**﴾[التوبة: ١١١]؛ نعم يُقتَل ولكنّه لا يموت كما ينبئنا الله تعالى في آية أخرى: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾[آل عمران: ١٦٩]. وهذا المعنى يعبرّ عنه بأفضل طريقة وأكثرها بلاغة قوله سبحانه: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾[الحجّ: ٤١]. و بمقابل هذا النصر الذي يقع في صراط الله عزّ وجلّ وفي سبيله، نرى نصرًا وتمكينًا آخر يُستثمر بشكل آخر يخبرنا الله تعالى عنها بقوله: ﴿**أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ**﴾[الأنعام: ٦.]. فالتمكين الأوّل إلهيٌّ لأنّه يصبّ في المقاصد التي يريدها الله عزّ وجلّ بخلاف الثاني.

فلسفة نسبة النصر لله
نسبة النعم لله تعالى
الرزق
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾
العلم
﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾
النعم كلّها:
﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾
النصر
﴿وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾
التوحيد الأفعالي والنصر
﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.
التوحيد في مقابل التعدُّد
التوحيد في مقابل التركيب
التوحيد الأفعاليّ
التوحيد في مقابل زيادة الصفات
النصر والجهاد
دعاء الافتتاح: «اللهمّ أعزّه واعزز به، وانصره وانتصر به، وانصره نصرًا عزيزًا، وافتح له فتحًا يسيرًا، واجعل له من لدنك سلطانًا نصيرًا... وانصرنا به على عدوّك وعدوّنا... وأعنّا على ذلك بفتح تعجّله... ونصرٍ تعزّه وسلطان حقٍّ تُظهره...»
النصر والجهاد
الصحيفة السجادية: (وَأَلِّفْ جَمْعَهُمْ، وَدَبِّرْ أَمْرَهُمْ، وَوَاتِرْ بَيْنَ مِيَرِهِمْ، وَتَوَحَّدْ بِكِفَايَةِ مُؤْنَهِمْ، وَاعْضُدْهُمْ بِالنَّصْرِ، وَأَعِنْهُمْ بِالصَّبْرِ، وَاَلْطُفْ لَهُمْ فِي الْمَكْرِ).
قيمة الأشياء: إنّ الأشياء تأخذ قيمتها ممّا تنسب إليه أو يتّحد معها أو يقرن بها، ولذا فإنّ النصر قد قرن بالله سبحانه وتعالى فكانت قيمته فوق كلّ شيء ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

الفصل الخامس

النصرُ كسنّةٍ وناموسٍ تاريخي واقعي

● أولاً- نماذج حية من القوانين والسنن القرآنية:

تعد كلمة «سنّة» من الكلمات الحاضرة بقوة في تداولات الفكر الإسلاميّ على أكثر من صعيد، وهي تعني في أشهر وأهم تعريف لها: «قول المعصوم وفعله وتقريره». بما يعني أن كل ما ورد عن الرسول الكريم(ص)، من أقوال وأفعال هو سنّةً، وأيضاً جميع ما جاء حول سكوته عن بعض التصرّفات التي بدرت من بعض المسلمين في حضوره وسكت، ولم يعترض عليها. وليس المقصود هنا هو هذا المعنى. إنما المراد من كلمة سنّة معنى ثانٍ هو المعنى الذي ذُكر في القرآن، مع أنه يوجد للكلمة معاني أخرى شاعتً في التداول الفكري والمجتمعي..

1. تعريف السنّة (الناموس التاريخي):

استعمل العرب كلمة سنة في محاوراتهم وأحاديثهم وتعاملاتهم، وعندما جاء الإسلام ونزل الوحي على رسول الله(ص)، أخذت هذه الكلمة معنًى جديداً غير الذي كانت عليه (وهذا ما سنتعرض له لاحقاً في هذا الكتاب).. وهنا يجب أن نشير إلى أنّ أحد أوجه الإعجاز في القرآن الكريم هو استخدامه لكلمات عربيّةٍ في معاني جديدة بشكل لا يحسُّ القارئ أو المستمع بشيء غريب أو يستهجن بالرغم من تبدّل المعاني

القديمة واختلافها عن المعاني القديمة. وقد التفتَ إلى هذه الصورة من صور الإعجاز القرآنيّ الكثير من العلماء ومنهم المفكر الياباني توشيهيكو إيزوتسو إذ تحدث في سياق فكري تاريخي مطول يمكن العودة إليه في كتابه، عن وجود كلمات قديمة -انتمت لفضاء وقاموس مفهومي قديم خلال عصر الجاهلية- أعطاها القرآن معاني جديدة أوسع وأشمل ضمن شبكة كلامية مفاهيمية جديدة..[1].

ومن هذه الكلمات التي ينطبق عليها هذا المبدأ كلمة «سنّة»، فهي كانت تدلّ في لغة العرب على الصبّ والجريان، وهو المعنى الأصليّ لهذه الكلمة.. فعندما تقول: سننتُ الماء على رأسي، أسُنّه سنًّاً، أي أنني أرسله إرسالاً.. ومنه تم اشتقاق الحمأ المسنون أي المصبوب، والرجل المسنون الوجه في تشبيه لحالته وكأن اللحم قد سُنَّ على وجهه[2].. ثمّ تطوّر هذا المعنى وصار يُستعمل في القوانين التي يجري عليها الفعل الإلهيّ في المجتمعات الإنسانيّة سواء كان ذلك في عالم التشريع أو في عالم التكوين.

2. سنن الله ونواميسه الواردة في القرآن الكريم:

لدى مراجعتنا للمعاجم القرآنية نجدُ أنَّ كلمةَ سنّة وردتْ في القرآن الكريم مرّات عدّة، بمعان وسياقات متعددة ومختلفة، ومن المحتمل أن

١ - أنظر: توشيهيكو إيزوتسو، الله والإنس ان في القرآن، ص٣٥.
٢ - أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، مادّة: سنّ.

يكون معظمها في معنى المنهج والسيرة التي يجريها الله تعالى على عدد من المجتمعات الإنسانيّة. ومن أمثلة ذلك الآيات الآتية:

أ. قال الله سبحانه ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ**﴾[الأنفال: 38].. والسنّة هي الطريقة والسيرة بحسب السيد الطباطبائي، وقد أمر النبيّ(ص) أن يبلّغهم ذلك.. وفي معناه تطميع وتخويف وحقيقته دعوة إلى ترك القتال والفتنة ليغفر الله بذلك..[1].

ب. قال الله عزّ وجلّ: ﴿**وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿76﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً**﴾[الإسراء: 76-77].. حيث يريد الله تعالى في هذه الآية أن يعطينا قانوناً معيارياً وسنة تاريخية مؤكدة، يرسمها منهجاً حتمياً، في التعامل مع ممن يجربون الصدّ عن سبيله سبحانه.. وتقضي هذه الطريقة أو هذا المنهج السنني -إن صح التعبير- بأنّ المخرِجين سيستأصلهم الله من الأرض التي أخرجوا منها رسوله، ويقوم بتفكيك وحدتهم الاجتماعيّة التي كانت تربط فيما بينهم وتدفعهم إلى ما قاموا به من اعتداء.

ت. قال الله عز وجل: ﴿**وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ**

---

١ - محمد حسن الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج٩، ص٧٥.

لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[سورة فاطر، الآيتان 42-43]. إنه يريدنا أن نقرأ (ونراجع ونتمعّنَ) في سنن الأولين التي قضى الله فيها بنصر عباده المؤمنين على المستكبرين.. فهو تعالى يهددهم بما تتطلبه الطريقة والسنّة الإلهيّة في التعامل مع الأمم التي جاءت قبلهم، ويلفت انتباههم ويدعوهم إلى أن يسيروا في الأرض، ليعتبروا بما حصل للأوّلين وبالقوانين التي طبّقها الله سبحانه على من سبقوهم من الأمم.

3. آيات السنن في مداليلها ومؤشراتها العملية:

ويمكننا هنا بعد التأمل في الآيات المتقدّمة أن نستنتج منها عدة قضايا تصلح لتطبيقها على مادة «النصر»، كسنة تاريخية واقعة من خلال وعد الله تعالى للمؤمنين برسالته ومنهجه..

أ. العلاقة فيما بين الفعل ورد الفعل:

تشبه السنّة القانون الذي يحكم العلاقة فيما بين الفعل وردّ الفعل. ففي أول آية يشرح لنا تعالى -في وصفه لحالة الملازمة للمخاطبين بالآية- سيرة الأمم السابقة (الفعل) وعن انطباق سنّة الله عز وجل على الأمم السابقة عليهم (ردّ الفعل).. وفي الآية الثانية يخبرنا سبحانه عن أنّ إخراج

الرسول من ساحة دعوته سوف يفضي إلى (كفعل) إلى تفكّك المتمرّدين وفقدانهم لوحدتهم الاجتماعيّة (كردّ فعل). والأمر ذاته يُقال فيما يتعلق بالآية الثالثة.

ب. المعرفة المسبقة:

يذكرُ العلماء أنّ ميزة القوانين العلمية (أي تلك التي يقدر العلم على اكتشافها والوصول إلى معرفتها بالتجربة والبرهان الحسي وغيره) أنّها قد تساعد للإنسان في عملية التنبّؤ بالأحداث والتحولات الآتية في الطبيعة. فمثلاً يؤدّي فهم الإنسان لقانون الجاذبية، بحيثياته ومعاييره المضبوطة على شكل قوانين ومعادلات رياضية، يؤدي إلى تمكّن المهندسين من تنظيم الأبنية وفقاً لتلك القوانين والمعادلات المحدّدة بما يسمح (ويساعد) على متانة البناء وتماسكه ومنع انهياره. وكذلك قد يفسح فهمُ القانون -الذي يؤدّي إلى الكسوف أو الخسوف- المجال للتنبّؤ بحصول هاتين الظاهرتين قبل حدوثهما وعلى هذين الأمرين يتم قياس ما سواهما.

ويمكن تطبيق المعيار حتى على الصعيد التاريخي الاجتماعي، إذ أنّ معرفة الأمم السابقة ودراسة أسباب صعود الحضارات ومن ثم سقوطها، يقودنا بالضرورة إلى الوقوف على قوانين وسنن تاريخية، ومعرفتها، قد تهدي الإنسان إلى أن يتوقع النتائج والتأثيرات التي تنجم عن أفعاله وسلوكياته لاحقاً، من باب الحذر وتبديل الخيارات، أي أخذ العبرة.. والاعتبار هنا يعني النظر الواعي والمسؤول في مصائر السابقين من

المجتمعات والدول ودراسة الآثار التي ترتّبت على أفعالهم وكسبهم الحياتي، من أجل معرفة التأثيرات والنتائج التي ستترتّب عند تكرار الفعل ذاته أو ما يشابهه من المجتمع والأمة المدعوّة إلى الاعتبار بمن سبقها من المجتمعات والحضارات والأمم.

ت. الدوام والاستمرارية:

إنَّ دوامَ الحدوث واستمراريته (أي إطراده) هو من الخصائص التي تجعل من المبدأ قانوناً وسنّة سواء أكان ذلك في مجال علم الطبيعة أم في مجال الإنسان ومجتمعه. فلا يكون القانون قانوناً إلا إنْ انطبق على الكل بالطريقة ذاتها. وكذلك الإستثناءات التي يبدو للوهلة الأولى أنّها تقوم بخرق القاعدة ينبغي أن تخضع إلى استثناء في القانون يكون منسجماً مع القانون الأساسي . ومن هنا لا تكون المعجزات خرقاً للقوانين التي تحكم علاقة العلّة بالمعلول[1]. ومن هنا أيضاً لا يكون رفع التكليف على سبيل المثال عن بعض الأشخاص خرقاً للقانون التشريعيّ، إنما هو قانون يقود إلى الاستثناء بطريقة قانونيّة. والآيات المتقدّمة تدل على دوام هذا المعنى بشكل واضح يغني عن شرحه وتفصيله.

---

١ - إشارة إلى نقاش فلسفيّ يدور حول المعجزات التي يأتي بها الأنبياء وأنّها لا تعدّ خرقًا لقانون العليّة، بل هي مصداق من مصاديق قانون العليّة ولكن النبيّ الذي يأتي بالمعجزة يطّلع على علّة غير العلّة الطبيعيّة التي اعتاد الناس عليها. وتفصيل هذا البحث له محلٌّ آخر. ومن أراد المزيد يمكنه الرجوع إلى كتب علم الكلام والفلسفة وكتب التفسير، ومن ذلك: محمد حسن الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٧٣.

ث. حفظ الاختيار:

وهذه الخصوصية المتعلقة بالقوانين والنواميس الاجتماعية، تحفظ للإنسان اختياره (المفترض أن خيار قائم على الوعي والتأمل)، ولا تلغي إرادته (التي اختار بموجبها هذا السبيل أو ذاك).. وعدم إلغاء الإرادة هنا لا يعني ففقط التغيير والرفض بل يعني حتى التكيف مع القانون غير القابل للتغيير والمواجهة.. إذ أنه حتّى في القوانين الطبيعيّة (القائمة على معادلات رياضية مثلاً)، والتي هي غير قابلة للتغيير والتبديل، يمكن للإنسان أن يتكيف معها، ويستثمر فيها، ويستفيد منها، حتى مع معرفته بسر قوانينها ومعادلاتها.. يقول تعالى: ﴿**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلا**﴾.. فمثلاً اكتشف الإنسان قانون الجذب (الجاذبية) وعرف قوانينه ومعاييره الرياضية، وهو غير قادر على إبطاله أو تغييره، نعم هو تمكن من استثماره واستغلاله، أي أنه امتلك القدرة بإرادته على أن يكيّف حياته معه والإفادة منه وإرشاده في خدمة أغراضه وغاياته، ولو في حدود مرسومة لا يمكن تخطيها. فبدل من أن ينطبق علينا قانون الجاذبية ويجعلنا نسقط من الأعلى إلى الأسفل نستطيع أن نستفيد منه في أن نستقر على سطح الأرض. وهكذا هي القوانين الاجتماعيّة إذ أنه يمكن التعامل معها بهذه الطريقة الواعية والآمنة والحكيمة، فبإمكان الإنسان أن يعمل على تحقيق الفعل من أجل أن يتحقّق ردّ الفعل، أو على عكس ذلك ألاّ يقوم بالفعل ويستفيد من تجارب الأمم السابقة فلا يحصل له ما حصل لهم..

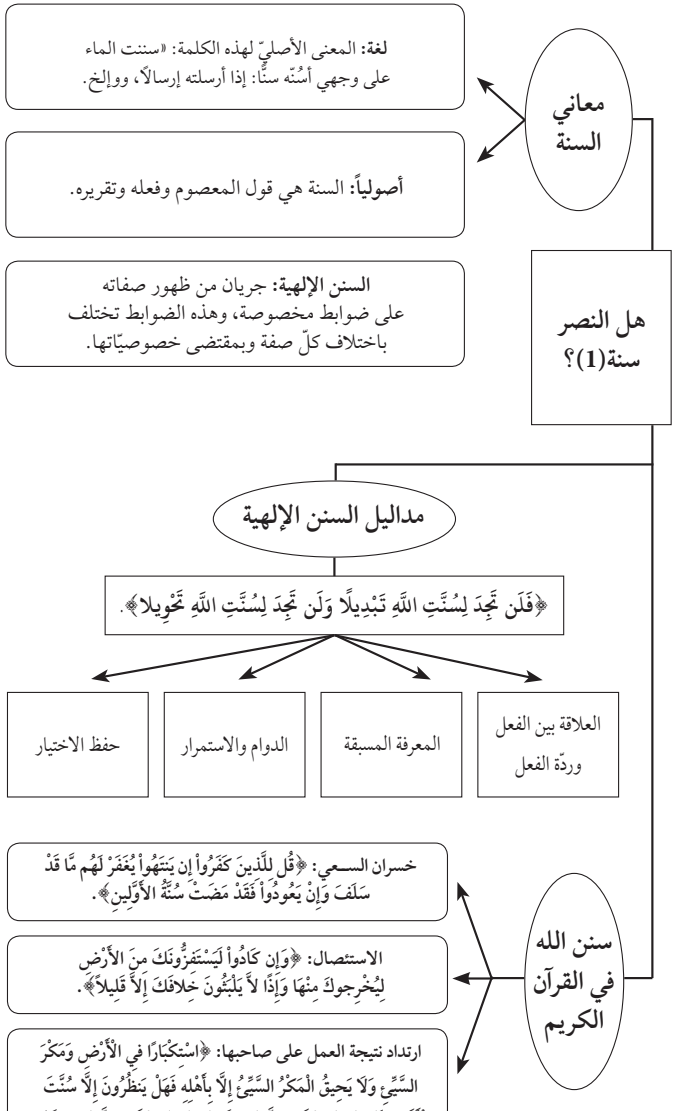
هل النصر سنة(1)؟
معاني السنة
لغة: المعنى الأصليّ لهذه الكلمة: «سننت الماء على وجهي أسُنّه سنًّا: إذا أرسلته إرسالاً، وإلخ.
أصولياً: السنة هي قول المعصوم وفعله وتقريره.
السنن الإلهية: جريان من ظهور صفاته على ضوابط مخصوصة، وهذه الضوابط تختلف باختلاف كلّ صفة وبمقتضى خصوصيّاتها.
مداليل السنن الإلهية
﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلا﴾.
العلاقة بين الفعل وردّة الفعل
المعرفة المسبقة
الدوام والاستمرار
حفظ الاختيار
سنن الله في القرآن الكريم
خسران السعي: ﴿قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾.
الاستئصال: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.
ارتداد نتيجة العمل على صاحبها: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِه فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾.

● ثانياً- نواميس النصر الإلهيّ في كتاب الله.. في المعنى والمقاصد العملية:

لمعرفة فيما إذا كان النصر الإلهيّ ناموساً وسنة من السنن التاريخية والإلهية الحتمية، وقانوناً كتبه الله على نفسه، ولدراسة الشروط التي يجب على الإسنان توفيرها ليحصل عليه، لا بد من دراسة آراء علماء متمكنين عالجوا موضوع السنن التاريخية بمنطق عقلاني وموضوعي، وأبدع في فتح هذا المجال البحثي الرصين، ويأتي على رأس هؤلاء الفيلسوف الكبير الشهيد المرحوم السيد محمد باقر الصدر.. فماذا يقول في هذا المجال؟

١. السنّة بحسب رأي المرجع الراحل الشهيد السيد محمد باقر الصدر:

يرى الشهيد الصدر أنّ القرآن كشفَ عن اهتمامه بما يسمّيه بالسنن التاريخيّة بأكثر من طريقة، فمرّة يخبرنا القرآن عن خضوع التاريخ البشريّ لعدد من القوانين والسنن على نحوٍ عامٍّ، ومرة ثانية يخبرنا عن سننٍ بحد ذاتها عن طريق ذكر المصاديق والأمثلة لهذه السنن، وأخرى ثالثة يمزج القرآن فيما بين النظريّة والتطبيق...[1]. ومن الأمثلة على القسم الأوّل قوله عزّ وجلّ: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**﴾[الأعراف: ٣٤]. ومن الأمثلة على القسم الثاني قوله عزّ

١ - أنظر: محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنيّة، ص٥٤.

وجلّ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله﴾[الأنعام: ٣٤] ومن الأمثلة التي يمكن ضربها على قضية الحض على التأمل في مصائر الشعوب السابقة ومآلاتها العملية، نقرأ قوله عزّ وجلّ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[يوسف: ١٠٩].

٢. إثبات أنّ النصر سنّة تاريخية وليست حدث ظني عابر:

في الواقع هناك عدة آيات قرآنية تحدثت بوضوح عن أن قضية النصر هي ناموس تاريخي، أي أنها اعتبرته سنّة وقانوناً من السنن والقوانين التي ثبتها وكتبها الله تعالى للمؤمنين به والناصرين لقيمه ومبادئه.. ومن القرائن العامّة والشواهد التي تدلّ على أنّ النصر سنّة تعبير الله عن نصره لبعض الأنبياء والمجتمعات الماضية بصيغة المضارع. والفعل المضارع كما يشير إليه العلماء المتخصصين في اللغة العربيّة إنما يدلّ على التكرار والاستمرار. وإنَّ هاتين السمتين هما من سمات القانون كما ذكرنا آنفاً. ومن الآيات التي وردتْ بهذه الصيغة قوله سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: ٤٠]. والتأكيد المضاعف الذي اتصفت به بعض عبارات القرآن الكريم والتي تتحدث عن النصر تكشف أنّ النصر هو سنّة من السنن الإلهيّة والتي يجريها الله سبحانه على من يستحقّها: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[المجادلة:

٢١].. واللام والنون هنا (في الآية) هي إشارة للتأكيد والجزم والحتم والفرض.

٣. آيات النصر في القرآن:

تحدث القرآن الكريم في عدد من الآيات الكريمة عن موضوع الوعد الإلهي بنصر المؤمنين من عباده في تأكيد على كون النصر قانوناً وسنّةً إلهية حاكمة وحتمية تجري في حركة المجتمعات البشرية مجرى الدم في عروق الإنسان؛ وأنه لا سبيل لردّها أو تبديلها أو الانقلاب عليها.. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن محورنا وبحثنا هنا مختلف نسبياً عن المحور المعتمد عند السيد محمد باقر الصدر(ره) باعتبار أنه درس وحلل موضوع أو مبدأ خضوع التاريخ لسنن قوانين، بينما نحن نستهدف في دراستنا سنّة النصر الإلهيّ.

أ. الآيات العامّة في النصر:

عبر القرآن الكريم عن قضية «السنن» بصيغ عديدة، منها صيغة التعبير العامّ التي أوضح فيها خضوع المجتمع والتاريخ للسنن والقوانين، حيث يمكن إدراج الآيات التالية تحت هذا النمط أو الصنف من التعبير السنني:

١ - قال عز وجل: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[آل عمران: ١٢]. إنَّ الله يأمر في هذه الآية بإبلاغ الكافرين بالقانون الإلهيّ الذي سيُطبّق عليهم وهو قانون الغلبة، مهما طالتّ الأيّام. وهذه الآية بالرغم من أنّها لا تتحدّث بكل مباشر عن نصر

المؤمنين وانتصاراتهم، فهي تفيد هذا المعنى بكل واضح، فعندما يُغلب الكافرون سيكون المنتصر هو الطرف المقابل لهم، وهم المؤمنون.

٢ - قال عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّه وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[المائدة: ٥٦]. وهي تقرر مبدأً عامّاً (سنة تاريخية) وهو: تَحقّق الغلبة الدائمة لحزب الله (بما هو كيان المؤمنين الروحي والنفسي والعقائدي) على غيره من الجماعات والفئات التي تؤمن وتوالي إلهاً آخر غيره تعالى، وتتحزّب له وتلتزم مبادءه.

٣ - قال الله سبحانه: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[آل عمران: ١٢٦]. وهذه الآية بالرغم من أنه وردت ضمن سياق الحديث عن النصر الذي تحقق للمسلمين في موقعة بدرٍ بإذن الله وتوفيقه وتأييده، لكنَّ اختتامها بهذا الشكل يسمح بتصنيف هذا القسم من الآية في خانة الآيات العامّة؛ لكونه ختام مشعر بالتعليل، وصيغة الاستثناء والنفي تؤكّد هذا المعنى. وعن استناد النصر للقدرة الإلهية وكونه مدداً من الله تبارك وتعالى، يؤكد السيد الطباطبائي في تفسير الميزان على أن حقيقة النصر هي من الله سبحانه الذي لا يغني عنه شيء.. فهو الله الذي ينتهي إليه كلّ أمرٍ..[1].

٤ - قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ

١ - محمد حسن الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج٤، ص٤.

﴿فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الروم: ٤٧]. ووجه تصنيف هذه الآية في الآيات العامّة أمران أولهما أنّها تتكلم عن الرسل ممن أرسلهم الله سبحانه قبل النبيّ (صلى الله عليه وآله) ولا تشير إلى رسول معيَّن منهم، وثانيهما أنّها تختم بتوضيح قاعدة عامّة وهي أنّ الله عزّ وجلّ جعل للمؤمنين على نفسه حقًّا أن يقوم بنصرهم ولا يكلهم إلى أنفسهم، ولا يقوم بإلقائهم طعمة إلى الكافرين.

٤ - ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[المجادلة: ٢١]. وقد سبق أن مرت معنا هذه الآية، وهي تدخل هنا في هذه المجموعة من الآيات التي توضّح أنّ النصر هو سنّة حاكمة وحتمية من السنن الإلهيّة التي ألزمها تعالى لنفسه تجاه عباده المؤمنين. وهي تشابه في لهجتها التركيب القرآنيّ الوارد في قوله عزّ وجلّ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[الأنعام: ٥٤].

ب. آيات النصر المصداقيّة:

• **قال عز وجل في محكم كتابه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**[آل عمران: ١٢٣]. رغم أن هذه الآية الكريمة -التي أخبرنا الله فيها عن أنه منّ النصر على عباده المؤمنين- نزلت بعد معركة بدر، لكن يمكن أن تندرج كسنة تاريخية مقررة لنصر المؤمنين في مدى التاريخ كله، ولسانها يوحي بإمكان تعميم هذا المبدأ -في النصر الحاسم على العدو- إلى غير هذه الواقعة من الوقائع.

والدلائل التي قد تسمح لنا بتعميمٍ كهذا هي: التكلم عن النصر مع تسليط الضوء على قضية «الضعف» والعدد القليل الذي كان المسلمون عليه في ذاك الزمان، وختام الآية بالدعوة إلى الشكر والتقوى الأمر الذي يوحي ولو على نحو الإشارة العابرة للوعد باستمرار مثل هذه المنّة في حال ترسخت لدى المؤمنين المسلمين مسألة التقوى والشكر له تعالى.. وهذا المعنى يتأكّد بملاحظة سياق الآية التالية لهذه الآية ومن ذلك قوله سبحانه في الآية ١٢٥ من السورة ذاتها: ﴿**بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ**﴾.

• **قال الله عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾** [التوبة: ٢٥]، حيث تكمل هذه الآية دلالة الآية السابقة وتقوم بتوضيحها. واتّضح أنّ نصر الله للمؤمنين في معركة بدرٍ لم يكن حالة شاذة أو استثنائية، بل كان في حقيقته قاعدة وسنة.. والهزيمة التي لحقت بجنود الإسلام أوّلاً في موقعة حنين كانت ناجمة عن الخلل الذي ارتُكب وهو الإعجاب بالكثرة وإهمال الحالة المعنوية الواجبة في التوكّل -لا التواكل- على الله. كما قد جاء في عدة أخبار مرتبطة بغزوة حنين أنّ واحداً من المسلمين قد قال: «لن نغلب اليوم عن قلّة»[1]. ولكنّ الله يؤكد في آيات أخرى على أنه يترك

١ - محمد بن علي ابن شهراشوب، مناقبُ آل أبي طالب، ج١، ص١٨٠.

المسلمين، إنّما عاد عليهم بعد أن قام بتأديبهم ولفت انتباههم إلى أنّ الكثرة لا تُغني عن المدد الإلهيّ، فأنزل الله سكينته وأمدّهم بأسباب النصر الغيبيّة[١].

- **قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**[الأنفال: ٢٦]. ويظهر أن هذه الآية قد نزلت في معركة بدرٍ كما يظن عددٌ من المفسّرين، وذلك أنّ المسلمين قد كانوا بهذه الحالة من الضعف والخوف أثناء بدر[٢] وبعد هذا النصر انقلب حال المسلمين، وازدادت شوكتهم قوة وقلّت أطماع المشركين بهم.

- **قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْيَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَاللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**[التوبة: ٤٠]. يفيد السياق العام لهذه الآية -التي لها سبب نزول محدد يخص النبي الكريم(ص) وصحبه- أنّ انتصار النبيّ(ص) لا يستند على وقوف الناس معه، ولا يتوقّف على نصرهم له، فالله ناصره دائماً وأبداً حتى عندما لم

١- انظر: سورة التوبة، الآية ٢٦. ويمكن أن تكون هذه الآية نموذجًا آخر للآيات التي تتحدّث عن حالات محدّدة من النصر الإلهيّ.

٢ - محمد حسن الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ٩، ص ٥٣؛ الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٥، ص٢٩٩.

يتواجد معه إلا واحد فقط من الرجال. وفي هذا دلالة على تحقق النصر للرسول والرسالة مهما بلغ ضغط الظروف وسوء الأحوال، فالله هو المعين وهو الناصر لنبيه (والمؤمنين) من أجل إتمام حجّته وتبليغ رسالته سواء قل الناس من حوله أم كثروا، وبالتالي تريد أن تقولَ هذه الآية أنه لا يجب على أي كان أن يتمنن على الله ولا على رسوله مهما ارتفعت رتبته ومقامه، فالله إنْ شاء أن ينصر نبيَّه ينصره وإنْ كان بمفرده.

٤. آيات الدعاء بالنصر للمجاهدين:

تحدث القرآن الكريم في عدة آيات عن طلب المؤمنين النصر من عند الله عز وجل.. ولهذا الطلب وجه دلالة يمكننا قراءته -في سياق مجموعة من الآيات- على ما نحن فيه، وهو: أن القرآن الكريم نقل هذه المجموعة بأسلوب يشابه إقرارهم الداعين على دعائهم، ما يشير إلى أنّ هؤلاء الداعين يقومون بطلب ما يطلبون من محلّه، ولو كان النصر يُطلب من مكان آخر لندبهم الله سبحانه إلى طلبه من حيث ينبغي أن يُطلب. ومن بين هذه الآيات:

- **يقول الله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾**[البقرة: ٢١٤]. ففي هذه الآية يخبرنا سبحانه وتعالى أنّ هذه الأمّة سيحصل لها ما حدث للأمم الماضية من ابتلاء و امتحان، وسيشتدّ البلاء عليها لدرجة تجعل

النبي يتوجّه إلى الله ويقوم بالسؤال عن المدد ووقت النصرة. والبعض من المفسّرين توقّفوا عند إمكانية صدور أمر كهذا عن الرسول، مؤكدين أنه لا إشكال في أن يتحدث الرسول الكريم بكلمات فيها استدعاء للنصر الذي وعد به الله سبحانه رسله والمؤمنين بهم..[1].

• **يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾**[البقرة: ٢٥٠].

تخبرنا هذه الآية عن جنود طالوت إذ برزوا في مواجهة معسكر جالوت بجنده وعدته وعتاده، طالبين من الله أن يثبّت أقدامهم وينصرهم. ووجه الدلالة فيها هو ما تقدّم في الآية آنفة الذكر فلا نقوم بالإعادة. وتتأكّد دلالة هذه الآية ومعناها من خلال التأمل في الآية التي تليها: **﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾**[البقرة:٢٥١]، والمراد الحقيقي هنا من مصطلح «إذن الله» -بالذات في هذه الآية- هو أنه إذنٌ تكوينيٌّ، وليس مجرد إذنٍ تشريعيّ، وذلك أنّه لا شكّ في الإذن التشريعيّ بتحقق فعل هزيمتهم، وبالتالي ما من داعٍ إلى ذكره، وما هو مستحقّ لنقوم بذكره هو الإذن التكوينيّ لدفع ما يمكن أن يُتوهّم من أن «القوّة الماديّة» يمكن أن تكون هي لوحدها معياراً وسبباً لتحقّق فعل النصر، فوضّح الله تعالى أنّ النصر يتحقق بإذنه وإرادته لا بالاعتماد على الأمور المادية.

---

١ - محمد حسن الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ٢، ص ١٥٩.

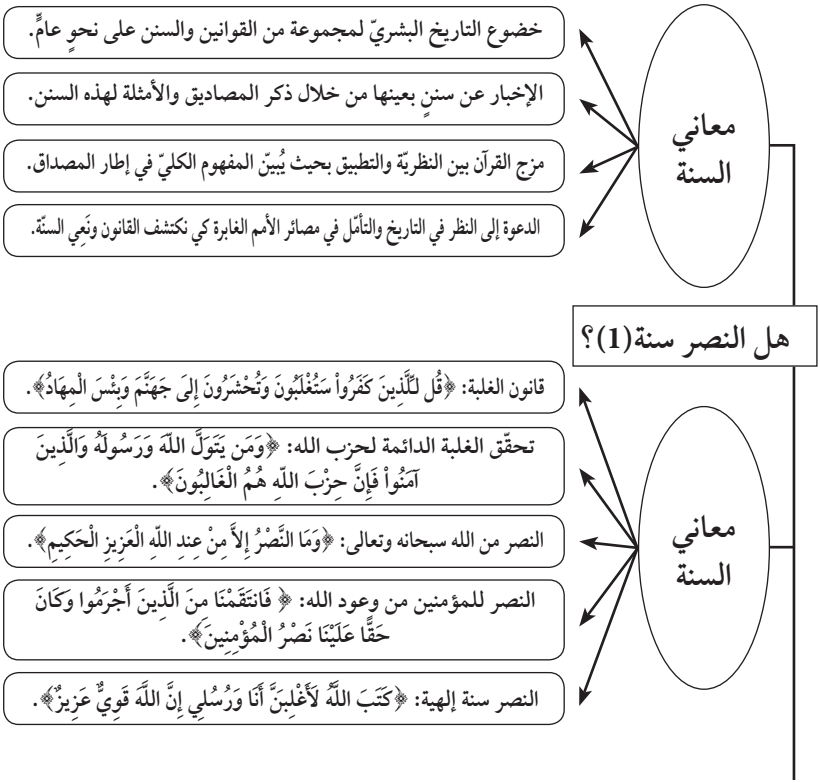
معاني السنة
خضوع التاريخ البشريّ لمجموعة من القوانين والسنن على نحوٍ عامٍّ.
الإخبار عن سننٍ بعينها من خلال ذكر المصاديق والأمثلة لهذه السنن.
مزج القرآن بين النظريّة والتطبيق بحيث يُبيّن المفهوم الكليّ في إطار المصداق.
الدعوة إلى النظر في التاريخ والتأمّل في مصائر الأمم الغابرة كي نكتشف القانون ونَعِي السنّة.
هل النصر سنة(1)؟
معاني السنة
قانون الغلبة: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.
تحقّق الغلبة الدائمة لحزب الله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.
النصر من الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.
النصر للمؤمنين من وعود الله: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.
النصر سنة إلهية: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

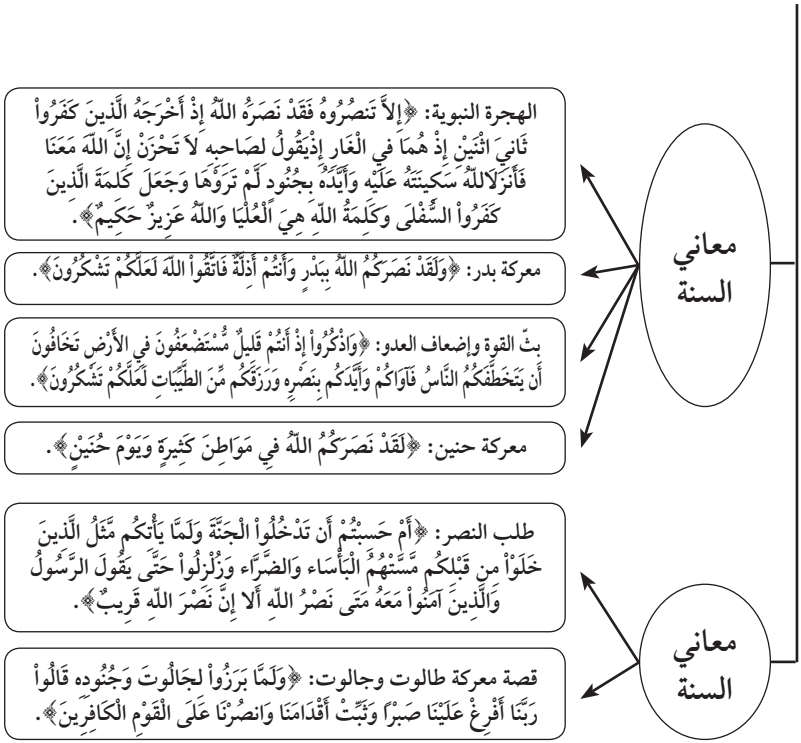
معاني السنة
الهجرة النبوية: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.
معركة بدر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.
بثّ القوة وإضعاف العدو: ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.
معركة حنين: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾.
معاني السنة
طلب النصر: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾.
قصة معركة طالوت وجالوت: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

الفصل السادس

أسباب النصر ودوافعه

● **أولاً- أسباب النصر المادية:**

لا شك بأن تحقق فعل النصرَ هو نعمةٌ من نعم الله ورزق معنوي وعملي كبير، كما أنه هو بذاته قانون وسنة تاريخية من سننه تعالى التي أقرها وألزم نفسه به تجاه عباده المخلصين المجاهدين، ولكن حدوثه وتحوله لواقع حقيقي لا بد وأن يقترن بأسباب ومسببات وشروط ومناخات ومهيئاتٍ أولية، لأن إرادته تعالى اقتضت أن لا تجري الأمور -أياً كانت حتى تلك التي يقررها- إلا بأسبابها سواءً أكانت تلك الأسباب قويّة أم ضعيفة. وقد سبق أن قمنا بإجراء مقارنة بين الرزق و النصر ، ونكرر هذه المقارنة هنا لنرى -ونؤكد في الآن معاً- على أنّ الرزق -وإنْ كانَ بيد الله حصراً كما في عدة آيات من القرآن الكريم ومن بينها على سبيل المثال وليس الحصر، قول تعالى: ﴿**وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾[آل عمران: ٢٧]؛- ولكنّ الله لم يقدّمه دائماً مجّاناً بل رتّبه على أمور عديدة يأتي على رأسها مسألة العمل والسعي للرزق، يقول عز وجل: ﴿**هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾[الملك: ١٥]. ولاحظنا أيضاً في قصّة السيّدة مريم العذراء (عليها السلام) عبرةٌ واضحة، إذ أمرَها الله سبحانه بأن تهزَّ جرة النخلة من أجل أن يتساقط عليها الرطب الجنيّ، أليس الله الذي أعطاها طفلاً من غير المقدّمات الشائعة للحمل والولادة قادرًا على أن يرزقها الطعام من دون

تعب وعناء: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[مريم: ٢٥]. ولمّا كان النصر لا يُقدّم مجاناً ودون مقدّمات وأسس، كان من المنطقي العثور على المقدّمات والأسباب التي تقود إلى النصر. ويتبادر سؤال هنا يقوم بطرحه الشهيد محمد باقر الصدر في كتابه عن السنن والقوانين التاريخية والاجتماعيّة، نكرر طرحه لأن له علاقة بموضوع البحث الحالي. ثمّ ننتقل بعدها إلى التطرّق إلى أسباب ومقدمات النصر.

١. النصر كسنة في معنى الاختيار الإنساني:

عندما نتحدث عن السنن التاريخية الإلهية الحاكمة كقوانين صارمة على حركة التاريخ وحاكمة على واقع المجتمعات البشرية، فإن هناك عدة أسئلة إشكالية مهمة تثار حول دور الإنسان، ووظيفته الوجودية في واقع الحياة التي جعلها الله تعالى ساحةً وميداناً لفاعلية هذا الموجود-الخليفة، على صعيد الواجب والدور والوظيفة والحضور والفعل والمسؤولية والإرادة وغيرها.. وإذا كان التخلّف والتقدّم ،الهزيمة والنصر ، وغيره من الحالات التي تطال المجتمع أو تحصل فيه، نتائجَ مباشرة -أو غير مباشرة- لحاكمية السنن الإلهيّة والقوانين التي تحكم المجتمعات، فأينَ هو دورُ الإنسان وأين فاعليّته وإرادته؟! ثم طالما الأمر على هذا النحو (من الحتمية التاريخية) ألا تشبه النظرة الإسلاميّة (التي ترجع كل شيء لحاكمية السنن الإلهية) هذه النظرة المادية «الماركسيّة» التي ترى الإنسان مجرد كائنٍ متلقٍ ومنفعل في المجتمعات التي

تسير وفق قوانين صارمة تشبه القوانين التي تتحكّم بحركة الطبيعة، حيث لا فاعلية للإنسان ولا دور له سوى الخضوع والخنوع والاستجابة والقبول بلا أدنى دور له ولا فعل حقيقي؟!..

في الواقع، يجيبُ الشهيدُ الصّدر عن هذا السؤال بالنفي، ويرى أنّ الطريقةَ التي عرض الله عزّ وجلّ فيها السنن التي تحكمُ حركةَ التاريخِ تعطي للإنسانِ دوراً فاعلاً ومؤثّراً وبالتالي لا يوجد تنافي ما بين إلهيّة السنن وبين تأثير الإرادة الإنسانيّة...[1].

٢. النصر في أسبابه ومقدّماته:

بالإمكان أن نقسّم أسباب ومقدمات النصر بعدّة طرق، ولكن سنعتمد احتمال التقسيم الثلاثيّ لها حسب هذا المعيار. فالمقدمات إما أن تكون طبيعيّة ماديّة ، أو تكون غيبيّة من جهة الله عز وجل، أو أن تكون أخلاقيّة وصفات نفسيّة يتَّسم الإنسان بها الذي أنعم الله عليه بالنصر. وسنحاول أن نعرض عدة آيات تتضمّن مثل هذه الأسباب حسب هذا التقسيم. ولا نقول بأنّه الاحتمال الوحيد أو الأفضل، إنما هو الأيسر وأقلهم تعقيدًا حسب ما نراه.

أ. العدّة:

لا شكّ في أنّ للعدّة دور في تحقيق الغلبة والنصر. وهذا الأمر ممّا اعترف

١ - للتكملة أنظر: محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، ص ٧٥.

الإسلام به وندب إليه المسلمين بأنواع عديدة. فقد تحدث القرآن الكريم في آيات عديدة عن ضرورة وأهمية التجهز والاستعداد للحروب ومجابهة الأعداء. كما جاء مثل هذا الأمر في السنّة النبوية الشريفة بأنواع متنوعة نذكرها فيما يلي:

• العدّة في القرآن:

- قال عز وجل: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ**﴾[الأنفال: ٦٠]. جاءَ في عدد من كتب التفسير أنّ هذه الآية نزلت بعد واقعة بدرٍ التي خرج إليها المسلمون من غير أن يكونوا قد أعدّوا عدّةً كافية لها، فحذّرهم الله عز وجل من الرجوع لذلك مرة أخرى[1]. والإعداد في الآية هو التجهّز والتهيئة وبناء أسس القوة ومقوماتها المادية وليس فقط الروحية المعنوية.. والقوّة هي كلّ ما يتقوّى به على الأعداء وقيل أيضاً بأنها الرمي على وجه الخصوص، وأما الرباط فهو الخيلُ التي تربطُ في سبيل الله. وفي الآية فائدة مهمة وكبيرة يجدر الوقوف عندها والتأمل في مدلولاتها، وهي الفعل ترهبونَ حيث يُراد منه الخوف الذي يدخل إلى قلوب الأعداء فيمحي طمعه في المسلمين وبالتالي يجعله متردداً في بدء المعركة وهو ما يُعرف في زمننا بالردع. وقد يكون المعنى من الفعل هو أنّ إعداد العدّة ليست هي المسألة الوحيدة التي ق تحقّق فعل

١ - فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، ج١٥، ص١٨٤.

«النصر»، إنما أقصى ما تقوم بتحقيقه هو إدخال الخوف في قلب العدو. طبعاً القوة والاستعداد للمواجهة لا تعني الالتزام بأساليب وأدوات مضى زمنها، لأنها مفهوم متطور ومرن يختلف من زمان إلى آخر تبعاً لتطوّر العلوم وتقدم أدوات المواجهة وأسلحتها، فما كان صالحاً في زمن سابق، قد لا يصلح لزمن لاحق.

• قالَ عز وجل: ﴿**وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَـكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ**﴾[التوبة: ٤٦]. تتحدّثُ هذه الآية عن عدد من المنافقين ممن كانوا يستأذنون النبيّ الكريم (صلى الله عليه وآله) تهرّباً من القتال فكانَ النبيّ يأذنُ لهم كي يخرجُهم من معسكره ويريحُ حشدَ المسلمين من شرّ وجودهم بينهم. ووجه الدلالة في الآية على ضرورة الاستعداد للحرب و الإعداد لها، أنّ الله يحكمُ على هؤلاء القوم بأنّهم كاذبونَ في دعواهم النية في الخروج إلى القتال والاستئذان بعدها من أجل الانسحاب، ومستند هذا الحكم عليهم هو أنه لم تظهر عليهم أمارات الاستعداد.

• قالَ عز وجل: ﴿**لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ...* وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ**﴾[التوبة: ٩١-٩٢]. تتكلم هاتان الآيتان عن مجموعة من الأوفياء من المسلمين ممن يرغبون بالخروج إلى القتال مع الرسول (صلى الله عليه وآله)، ولكنّه لا يسمح لهم بالخروج معه بسبب عدم وجود أو عدم توفر الراحلة التي يقلّهم عليها، وأم «هم» من ناحيتهم ليسوا قادرين على توفير

رواحل تقوم بحملهم. والامتناع عن حملهم وملئ أعينهم بالدموع شوقاً للجهاد يشير إلى أنّ المقاتل ممن لا يتوافر له وسيلة النقل والسلاح لا يقوم بخدمة هامة في ساحات القتال، إنما قد يتحوّل إلى عبء على كاهل المجاهدين ممن قد يُشغلون بالدفاع عنه والتفكير في حمايته في أثناء الحرب.

الآيات الثلاث السابقة دليل واضح على المدى الذي بلغه الاهتمام الديني الإسلامي بإعداد العدّة مع ضرورة التوكّل على الله تعالى في تحقيق فعل «النصر». ومن التجربة المعاصرة يمكن أن نشير إلى أهم تجربتين نهلتا نهلاً واعياً وحكيماً ومسؤولاً من هذا النبع الأصيل، وهما: تجربة المقاومة الإسلاميّة التي خلال سنوات قد راكمت ما أتيح لمجاهديها من أسلحة هجوميّة ودفاعيّة وقوّة أوجدت توازن ردع في مجابهة العدوّ؛ إذ أصبح العدوّ أبعد ما يكون عن الجرأة والتهوّر على الإقدام على البدء بالحرب عندما يريد.

والتجربة الثانية والأكثر أهمية على صعيد القوّة العسكريّة والإعداد هي التجربة الإسلاميّة في إيران التي وضعت حكومتها الرشيدة على رأس أولوياتها: مسألة الاكتفاء الذاتيّ في ميدان التصنيع العسكريّ. وقد بدأ مفجّر الثورة الإسلامية يفكر في هذا الأمر بشكل مبكّر، وقال في أحد محاضراته في النجف الريف: «إنّ قوله عز وجل: ﴿**وأعدّوا لهم ما استطعتم...**﴾ يدلّ على وجوب الاستعداد بكل ما تيسّر من وسائل الدفاع والهجوم...»[1]. بل كان رحمه الله

١ - روح الله الموسوي الخميني، ولايت فقيه (حكومت إسلامي)، ص ٣٣.

يفكّر في هذا الأمر قبل خروجه من إيران، وذلك كما جاء في كتابه الشهير «كشف الأسرار» الذي تم نشره في بداية عهد محمد رضا بهلوي، إذ يقول فيه: «إذا كان الدفاع واجبًا على الجميع، فمقدّمات الدفاع واجبة أيضًا. ومن بين مصاديق الإعداد التشكيلات العسكريّة، وتعلّم فنون القتال على القادرين على ذلك»[١].

• **العدّة في الأحكام الإسلاميّة:**

من المعروف أنّ الفقه في الإسلام يحرّم الرهان والمسابقة التي بها تعويض مادي يأخذه الفائز. ويعتبر الفقهاء هذا الأمر أنه من القمار. ولكن نلاحظ أنّ الفقهاء الذين قاموا بتحريم الرهان واستندوا بذلك إلى دلائل فقهيّة عديدة مرويّة عن الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله) وعن الأئمّة (عليهم السلام)، نجد أنهم يجيزون الرهان في أمرين هما: الرماية والسباق، ويخصّصان لهاتين «اللعبتين» بابًا في الفقه الإسلاميّ يتطرق إلى أحكامهما[٢]. ومن الأدلّة التي يستدلّون بها لجواز المسابقة والرماية مجموعة من الروايات عن النبيّ (صلّى الله عليه وآله) والأئمّة (عليهم السلام) منها: «إنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أجرى الخيل وجعل سبقها أواقي من الفضّة»[٣]. وعن

١ - روح الله الموسوي الخميني، كشف الأسرار، ص ٤٦-٤٥.
٢ - انظر كنموذج: السيد الخوئي، منهاج الصالحين، ج ٢، ص ١١٩.
٣ - الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤٩٤.

أبي عبد الله (عليه السلام): «لا سبق إلا في خفٍّ أو حافرٍ أو نصل»[1]. ولا يحتاج تفسير تجويز مثل السبق والرماية إلى جهد كبيرٍ؛ إذ أنه من الواضح هذا الارتباط بين هذين الأمرين على صعيد قضية الاستعداد والتجهز للحرب والجهاد.

ب. تجهيز الغازي وتهيئته:

يعد تجهيز الغازي من المفاهيم المشهورة في الأدبيّات الإسلاميّة، لأنّ التسليحَ في بداية الدولة الإسلاميّة كانَ أمراً فرديّاً؛ ومن أجل ذلك جاء أعلاه أنّ عدد من المسلمين كانوا يأتون إلى الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله) وليسَ لديهم أي وسيلة أو أداة يمكن أن يستعدوا من خلالها أو يتجهزوا بها للمباشرة بالقتال. ومن هنا ورد الدفع والحض على قضية الإنفاق على التسليح وتجهيز المقاتلين. وقد جاء الحثّ على هذا الأمر في القرآن الكريم للإنفاق على كل ما يتعلق بوسائل وعدة وعتاد المجهودات الحربيّة بحسب ما هو متعارف عليه في أيمنا هذه.. والذي يزيد الأمر وضوحاً أكثر -على صعيد القتال والتجهز له- هو الجهاد بالنفوس، ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ**﴾[الأنفال: ٧٢]. وفي الأخبار التي وردت في السنّة النبوية الشريفة

١ - الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤٩٤.

دعوة جليّة إلى وجوب أو استحباب إعداد المقاتلين وتجهيزهم على الميسورين مادياً، ومن ذلك ما جاء عن الرسول (صلّى الله عليه وآله): «من جهّز غازياً فقد غزا»[1].

ت. العديد:

لا يقتصرُ التجهز لمواجهة العدو على تأمين العدة (وسائل وأدوات وتجهيزات مادية)، بل لا بد من بناء وتأمين العديد (تهيئة الجند والقوات) لما له من دور حيوي في الوصول إلى حالة «توازن القوى» بين جبهة المسلمين وجبهة أعدائهم.. وهذا ما يفسِّر لنا تكرار الأمر الإلهيّ في القرآن الكريم بضرورة النفير من أجل القتال ومجابهة الكفار وغيرهم من الأعداء ممن خاض معهم المسلمون معارك في زمن نزول القرآن الكريم. كما أن القرآن الكريم أدان كل متخاذل ومتقاعس (قاعد) عن اللحاق بصفوف المسلمين، ومن بين هذه الآيات ما سيأتي:

• يقول الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ**﴾[التوبة: ٣٨]. وفي هذه الآية إشارة ذات دلالة كبيرة على نقد ولوم كل من يتقاعس

---

١ - لم نعثر على هذا الحديث بهذه الصيغة في المصادر الحديثيّة الإماميّة ولكنّه ورد في عدد من كتب فقهاء الإماميّة، انظر: محمد بن حسن الطوسي، الخلاف، مؤسسة النشر الإسلامي، إيران/قم، الطبعة الثانية، عام ١٩٩٩م، ج ٥، ص ٥١٧؛ العلامة الحلّي، منتهى المطلب، مجمع البحوث الإسلامية، إيران/مشهد، طبعة أولى، عام ١٩٩٢م، ج ٢، ص ٩٠٠.

ويتثاقل عن الخروج للقتال مع الرسول الكريم(ص) عندما يدعوهم إلى النفر والخروج.

• يقول الله عز وجل: ﴿**انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[التوبة: ٤١]. ودلالة هذه الآية أكثر وضوحاً من سابقتها حيث يأمر الله سبحانه فيها بالنفر على أي حال ولو من غير توافر الأسلحة بالرغم من أنه مهم وله ضرورة كبيرة كما سبق وتقدّم، لكنه عندما تدعو الحاجة إلى النفير العامّ لا يجب على المسلم أن يتحجج بأيّ عذر ليهرب من النفير وإن كانت عدم توافر ما هو كافٍ من الأسلحة للقيام بالواجب.

• **الاهتمام بنوعيّة العدد لا بكميته فقط:**

والإسلام لم يهتمّ بالعدد بمفرده إنما اهتمّ بنوعيّته. وإن المطلوب كان إظهار ما توافر من العدد في أفضل شكل يثير الخوف في قلوب الأعداء ولو بالاعتماد على عدد من التكتيكات التي تبرز صورة المسلمين على غير حقيقتها من أجل إثارة الخوف في قلب العدو. وممّا يندرج ضمن هذا الإطار نفسه هو الحض بل والطلب بضرورة التّخضّب مع بداية الدعوة.. ويبدو أنّ هذا الأمر هو إجراء اعتمده النبيّ (صلّى الله عليه وآله) والمسلمون من أجل إخفاء الشيب وإبراز عسكر المسلمين وكأنّه يطغى عليه عنصر الشباب من أجل أن يدفعوا طمع الأعداء بهم. (ولأجل أنّ هذا التدبير كانت تقتضيه الضرورة جاء في عدد من الأخبار أنّ أمير المؤمنين سئل عن الخضاب فخيّر بينه وبين عدمه: «سئل عليّ (عليه السلام) عن قول النبيّ (صلى الله عليه وآله): غيّروا الشيب ولا تشبّهوا

باليهود، فقال: إنّما قال ذلك والدين قلٌّ، وأما الآن وقد اتّسع نطاقه وضرب بجرانه، فامرؤٌ وما اختار»)[١].

• **تنظيم العديد وإدارته:**

وكثرة الأعداد وفق ما يقتضيه المنطق مضافًا إلى العلوم العسكريّة لا يجدي نفعاً بشكل كبير إن لم يكن منظّمًا ومنسّقاً، ولم يتم استغلال الطاقات البشريّة المتهيأة للتضحية وبذل النفوس. ومن هنا ينقل لنا كتاب الله تعالى عدداً من أشكال وصور التنسيق والتنظيم العسكري الذي كان يتولّاه نبي الله (صلّى الله عليه وآله). كما جاء في السنّة والنبوية والسيرة النبوية الشريفة ما له علاقة بهذا الأمر الذي سمح لعدد من الباحثين تأليف وإعداد الدراسات في آليات التخطيط العسكري التي كانت معتمدة عند الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله).

من القرآن: ﴿**وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[آل عمران: ١٢١]. «غدوت من الغدوّ وهو الخروج غداة والتبوئة تهيئة المكان للغير أو إسكانه وإيطانه المكان والمقاعد جمع [مقعد]... والمراد بأهل رسول الله (صلى الله عليه وآله) خاصّته..»[٢].

من السيرة النبوية الشريفة:

تقدمُ لنا السيرة النبويّة الكثير من الأخبار عن كيفية إدارة النبي الكريم(ص)

---

١ - الحر العاملي، هداية الأمّة إلى أحكام الأئمّة، ج ١، ص١٢٥.

٢ -راجع: الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج٤، ص٤.

للمعارك وإشرافه على توزيع صفوف المقاتلين وتنظيمهم.. وسنكتفي هنا بالإشارة السريعة إلى معركة أحد التي أعطى فيها النبي الكريم درساً بليغاً في كيفية التنظيم وقيادة الحروب.. فقد جاء في أخبار معركة أحد التي تحول فيها حال المسلمين من حالة النصر إلى حالة الخسارة، بعد أن قام الرماة بترك مواقعهم طلباً للغنيمة، فعاد جيش المشركين الذي كان منهزماً مستغلاً الفرصة لانكشاف ظهر المسلمين وانشغال عدد منهم بتقاسم الغنائم. وقد تحوّلَ النصر السابق إلى خسارة حتّى قال أبو سفيان معبّراً عن فرحته نكاية وثأراً لما ناله هو وحزبه يوم وقعة بدر: «يوم بيوم بدر، ألا إنّ الأيام دول، وإنّ الحرب سجال وحنظلة بحنظلة»[1]. ولولا أن ثبت بضعة من المجاهدين مع الرسول الكريم(ص) والإمام علي(ع) لربمّا كان يوم أحد هو آخر معركة كان سيخوضها المسلمون.

• العديد بين الكمّية والكيفية:

ركز الإسلام في نصوصه القرآنية والحديثية على أن التجهز للعدو لا يعني فقط الاكتفاء بالاستعداد الكمي بل يجب -إلى جانب الكم- الاهتمام بالكيف والنوع.. والقرآن الكريم أكد في بعض آياته الكريمة على هذه النقطة المهمة في بيانِ أهميّة الكثرة ودور كثرة المقاتلين في دعم جبهة الإسلام وحماية

---

١ - محمد بن عبد الله (الحاكم النيسابوري)، المستدرك على الصحيحين، ج٢، ص٢٩٧.

معسكره، مع لفته النظر إلى أنّ الكثرة ليست مطلباً بحدّ ذاته، فربّ كثرة لا تغني بل قد تفسد وتخرّب وتدمّر.. ومن تلك الآيات:

• يقول عز وجل: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[التوبة: ٤٧]. حيث تخبرنا هذه الآية عن أفعال المنافقين وارتكاباتهم، بما يدفع إلى عدم الركون إليهم أو الرهان عليهم في معادلة الحرب والسلم.. «والخبال -في الآية- هو الفساد واضطراب الرأي. والإيضاع هو الإسراع في الشر، والخلال البين، والبغي هو الطلب.. فمعنى عبارة يبغونكم الفتنة أي يطلبون لكم أو فيكم الفتنة.. وهي المحنة كالفرقة واختلاف الكلمة..»[١].

• قال عز وجل: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة: ٢٤٩]. هذه الآية تسرد لنا شيئًا من قصّة داود (عليه السلام) وتتحدث لنا عن خبر جنود طالوت ممن كان فيهم من أهل الإيمان المتكامل وفيهم غير المؤمنين، ومن هم ليسوا كاملي الإيمان، وقد بدر هذا الحديث الحكيم عن الجماعة الأولى ممن وصفهم الله عز وجل بأنّهم يظنّون أنّهم ملاقو الله، «والظنّ بلقاء الله إما بمعنى اليقين، وإمّا كناية عن الخشوع»[٢]. وعلى أيّة حال نقل هذا الحديث عن فئة أو «جماعة» ينعتها تعالى بهذا النعت مع عدم نقضه وإبطاله يكون دالاً

١ - أنظر: محمد حسن الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ٩، ص ٢٩٠.
٢ - محمد حسن الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ٢، ص ٢٩٢.

على أن الله تعالى يؤيده ويسدد خطى أصحابه.

وما يقومُ بتأييدِ الواقع المعاصر لحال المسلمين هذا التقييم القرآنيّ القلّة وللكثرة فربّ كثرة كغثاء السيل، كما جاء في الحديث المعروف عن الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله): «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كلّ أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قيل: يا رسول الله: فمن قلّة بنا يومئذٍ؟ قال: لا؛ ولكنّكم كغثاء السيل يجعل الوهن في قلوبكم وينزع الرعب من قلوب عدوّكم لحبّكم الدنيا وكراهتكم الموت»[1]. كما قد شهد تاريخ الإسلام المعاصر كثرة كغثاء سمحت لشاذّي الآفاق بأن يسيطروا على البلاد الإسلامية وثرواتهم وإقامة كيان غريب عن جسد الأمّة في قلبها. وجميع المؤشّرات تشير إلى أنّنا نشهد تغيّراً في تاريخ الأمّة يبدّل حالها بعد أن باشرت بتغيير ما هي عليه. ونطلب من الله سبحانه أن تكون هناك كثرة كالسيل وليس كغثائه في هذه الأمّة في المستقبل.

٣. الإعداد والاستعداد كمقدمة وسبيل لتحقق النصر:

يقول عز وجل: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ**﴾.. وهذه أمر عام صارم وغاية في معيارية الحركية إذا صح التعبير، ينبغي الالتزام

---

١ - حديث مشهور لم نعثر عليه في المصادر الإماميّة، وهو مرويٌّ في كتب أهل السنّة، انظر: علاء الدين بن حسام (المتّقي الهندي)، كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، ج١١، ص١٣٢.

به، ويقوم على ضرورة تهيئة المسلمين مبلغ قدراتهم من القدرات العسكرية الحربية اتي هم بحاجتها في مقابلتهم للأعداء سواء في الوجود أم في الفرض والاعتبار..

طبعاً الحياة البشرية يعيش فيها بشر مختلفين ومتنوعين ومتضاربي الأفكار والمصالح تصل حد التناقض والتعارض الكلي، الأمر الذي يعرض الحياة للمشكلات ونشوب الصراعات بما يفضي إلى التغلب والظلم والقهر بين المجتمعات.. ولهذا لاحظنا كيف يتحدث القرآن عن التدافع البشري والصراعات بين الأمم والحضارات كأمر لا بد أو لا مناص من حدوثه، ويدلّ على ذلك -بحسب الطباطبائي- ما نُشاهده من تجهّز الإنسان في خلقه بقوى لا يُستفادُ منها إلا للدفاع كالغضب والشدّة في الأبدان، والفكر العامل في القهر والغلبة، فمن الواجب الفطري على المجتمع الإسلامي أن يتجهّز دائماً بإعداد ما استطاعَ من قوّة ومن رباط الخيل بحسبِ ما يفترضه من عدو لمجتمعه الصالح. والذي اختاره الله للمجتمع الإسلامي بما أنزلَ عليهم من الدينِ الفطري الذي هو الدينُ القيّم هي الحكومة الإنسانية التي يحفظ فيها حقوق كل فرد من أفراد مجتمعها، ويراعي فيها مصلحة الضعيف والقوي والغني والفقير والحر والعبد والرجل والمرأة والفرد والجماعة...[1].

١ - أنظر: محمد حسن الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج٩، ص١١٥.

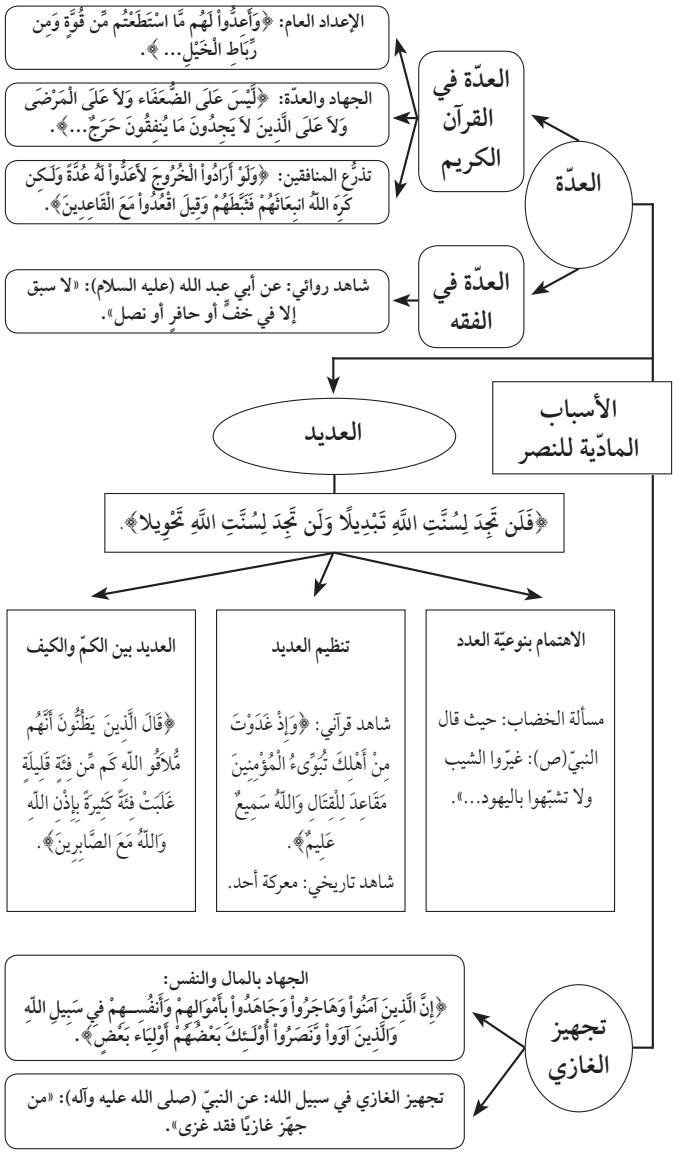
العدّة
العدّة في القرآن الكريم
الإعداد العام: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ... ﴾.
الجهاد والعدّة: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ...﴾.
تذرُّع المنافقين: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَـكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.
العدّة في الفقه
شاهد روائي: عن أبي عبد الله (عليه السلام): «لا سبق إلا في خفٍّ أو حافرٍ أو نصل».
الأسباب المادّية للنصر
العديد
﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلا﴾.
الاهتمام بنوعيّة العدد
مسألة الخضاب: حيث قال النبيّ(ص): غيّروا الشيب ولا تشبّهوا باليهود...».
تنظيم العديد
شاهد قرآني: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.
شاهد تاريخي: معركة أحد.
العديد بين الكمّ والكيف
﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.
تجهيز الغازي
الجهاد بالمال والنفس:
﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾.
تجهيز الغازي في سبيل الله: عن النبيّ (صلى الله عليه وآله): «من جهّز غازيًا فقد غزى».

● **ثانياً-الأسباب المعنويّة للنصر:**

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾[الأنفال: ٦٥].

تتحدث هذه الآية عن أهمية الإعداد الروحي للمقاتلين المجاهدين، لما له من أثر كبير في تحقيق الفوز والنصر على العدو.. وهذا الجانب المعنوي الحيوي قد يتمظهر في نفوس المجاهد بطريقة غيبيّة لا نعلمها، أو بشكل يمكننا من أن نحلّلها ونهتدي إلى حقيقتها وكيفية تأثير الصعيد والمستوى الرمزي المعنويّ على كيان الفرد وروحه وفاعليته في حياته الطبيعيّة على مستوى موضوع النصر والهزيمة وما يشبهه من الحالات.

وقد ذكر القرآن الكريم الأسباب المعنوية المندرجة في سياق الإعداد الروحي والتحريض المعنوي على الجهاد والقتال، يمكن استعراضها كما يلي:

١. الإيمان:

الإيمان لغةً هو كلمة تشتمل على عدّة معانٍ وهي التصديق و الوثوق والركون. ويُلاحظ أنّ هذه الكلمة وبالرغم من تنوّع استخداماتها وتعدّدها لكنَّها ذات أصل لغويّ واحد تنوعت معانيه بتعدد استخداماته. فيُقال: أمن فلانٌ فهو آمن على حياته ونفسه، وأمن البلاد، وآمن بالله، وائتمن زيداً

على كذا.. ويقال أمِن يأمن أمناً؛ أي اطمأنّ وزالَ عنه الخوف.. والائتمان هو أخذه أمينًا. والإيمان جعل نفسه أو غيره في الأمن والسكون...[1].

فقد جاء في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تقوم بالربط ما بين النصر والإيمان، وليس هناك ضرورة لاستعراضها كلها؛ ولذا سيتم الاكتفاء بالإشارة إلى بعض منها كما سيأتي:

• يقول الله سبحانه: ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[الروم: ٤٧]. من حيث المبدأ ليس هناك حقّ لأي كان على الله تعالى، فكل ما يفيض من الله يجري على أساس الكرم والجود، ولكنّ الله يلزم نفسه بعدة أمور، فتتحوّل إلى حقٍّ بالوعد الإلهيّ بالتفضّل على العبد.. وهذا الوعد هو الوثيقة الإلهية الأرفع والأصدق.. يقول تعالى: ﴿**وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ**﴾[الزمر: ٢٠].

• وفي آية ثانية قال سبحانه بلسان الوعد: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً**﴾[النور: ٥٥]. يعطينا الله تعالى عدة صيغ تفيد معنى النصر والوعد الحاسم بتحقيقه، كالاستخلاف، والأمن، والتمكين.

• يقول عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن**

---

١ - راجع: حسن مصطفوي،التحقيق في كلمات القرآن، ج١، ص١٦٤-١٦٥.

يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾[الأنفال: ٦٥]. وهذه الآية أيضاً لها دلالة واضحة على أنّ سمة الإيمان التي يتّسم بها أصحاب الرسول الكريم (ص) هي واحدة من الأسس التي تسقط العدد من الاعتبار، وتعطي المؤمنين ميزةً تجعل الواحدَ منهم يعادلُ عشرة من غيرهم.. إنه التحفيز والتحريض والدعم النفسي والإعداد الروحي.

أثر الإيمان في تحقق النصر:

والربطُ ما بين النصر والإيمان من الأمور التي يمكن أن يدركها الإنسان. حيث يستند المؤمن إلى ركنٍ وثيق هو الله، ويتميّز بميل شديد للتضحية لا يتوافر عند الآخرين، فهو كما ورد في الآية الكريمة: **﴿وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾**[النساء: ١٠٤]. فالاختلاف في الرجاء والهدف الذي يسعى من أجلها الإنسان تؤثّر في الدافع الذي يدفع بالإنسان إلى أن يضحي بنفسه من أجله. وخاصّة إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ الإنسان المؤمن يقوم بطلب الشهادة أو النصر، فإن فاز وانتصر فهي نعمة، وإن قتل (استشهد) فإنّه ينقلب إلى إلهٍ غفور، ومن ينظر إلى الأمور بهذا الشكل فليس هناك أي سبيل لليأس إلى قلبه. والشرط الرئيس في هذه السمة حتّى تترك تأثيرها هي أن تبقى رسمًا واسمًا بينما لو تبدّلت إلى اسم يخلو من المضمون فلا يجب توقّع أن يتحقق الوعد الإلهيّ بالنصر، فالنصر المجانيّ هو غاية لا

يتم إدراكها وبغية لا تُنال.. والحكم أعني النصر والغلبة حكم اجتماعيّ منوط على العنوان لا غير؛ أي إنّ الرسل وهم عباد أرسلهم الله والمؤمنون وهم جند الله يعملون بأمره ويجاهدون في سبيله.. فلا ينبغي أن يرجى نصرٌ ولا غلبة[١]. وبالتالي قد يهزم المسلمون إذا تم فقدان صفة الأكثرية لديهم حتّى وإن كان فيهم نبيّ من أنبياء الله عز وجل..

وهناك جانب آخر لعمليّة التغيير التي مارسها النبيّ(ص) وأصحابه الأطهار، هذه العمليّة حينما تلحظ بوصفها عمليّة متجسّدة في جماعة من الناس وهم النبيّ والصحابة.. وبوصفها عمليّة قد واجهت تيّارات اجتماعية مختلفة من حولها واشتبكت معها في ألوان من الصراع والنزاع العقائديّ والاجتماعيّ والسياسيّ والعسكريّ...[٢].

٢. العمل الصالح والتقي:

للنصر شروطه كما قلنا، وقد حدد الله تعالى شرطاً أساسياً وهو العمل الصالح.. وهو شرط أساسي وجوهري وعنصر حيوي لتحقق النصر.. أي هو عنصر من العناصر المهمّة الحيوية في استنزال النصر. وقد وضح الله تعالى هذا الأمر في عدة آيات.. من بينها:

- يقول الله عز وجل: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**

١ - للتوسع أنظر: محمد حسن الطباطبائي الميزان في تفسير القرآن، ج ١٧، ص ١٧٧.
٢ - للاستزادة راجع: المدرسة القرآنية، ص ٥٠-٥١.

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾[النور: ٥٥]. في هذه الآية نلاحظ أنّ النصر الذي يقدمه تعالى كوعد مرهون ومقيّدٌ بمسألتين وصفتين وهما العمل الصالح والإيمان.

• يقول عز وجل: **﴿...وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾**[الحج: ٤٠-٤١]. إن هذه الآية تتحدث عن العمل الصالح السابق على النصر، بينما هاتان الآيتان فهما تتحدّثان عن نصر الله لمن ينصره، لكنّهما تقيّدان ذلك بما يأتي بعد النصر، وتشترطان في هؤلاء الذين يدّعون الإيمان، ويطلبون من الله النصر والتمكين أنْ يحافظوا على الصفات التي ساعدتهم لينالوا النصر، وإلا فلن ينالَ النصر من الله سبحانه من يقوم بإضاعة ما طلبه تعالى منه.. ولو فرضنا أنه حدث مثل هذا الأمر فإنّ الله عز وجل يهدّد هؤلاء بالاستبدال بمن هم أهلٌ لأن يخصّهم الله عز وجل بنصره وتمكينه[1].

• يقول الله سبحانه: **﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا﴾**[الجنّ: ١٦].

• يقول الله سبحانه: **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم**

١ - انظر: سورة الأنعام، الآية ٦. ولنا عودة إلى هذا الأمر لاحقًا.

﴿مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[المائدة: ٦٦]..

تفيدنا الآيتان بأن الإيمان والاستقامة على شرع الله تعالى (وما تتضمنه من مقتضيات وشروط وإلزامات روحية وسلوكية) شرط ومقدمة لتحقق الوعد بفيض النعم الإلهيّة..

٣. الصبر والثبات على نهج الحق كسبيل للنصر:

الربطُ بين النصر والصبر من الأشياء الواضحة التي يدركها الإنسان بوجدانه، فالشخص الذي لا يتحمل نتائج التضحيات لا يستطيع نيل ما يشاء. وقد التفتَ الإنسان بفطرته وتجاربه الحياتية إلى مثل هذا الأمر، وإنّ الشعر الحكميّ، وكُتُب الأخلاق والأدب بشكل عام، قد أصبحت غنية بحديثها عن الصبر وتأثيره على بلوغ الإنسان لأهدافه. حيث قال الشاعر و«إنّ من الشعر لحكمة»: «لا بدّ دون الشهد من إبر النحل». ومن الحكم الشهيرة في الأدبيات الإسلامية قول: «من صبر ظفر فاصبر تظفر».. ومن ذلك ما ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام): «لا يعدم الصبور الظفر، وإن طال به الزمن»[1]. وقد اشتهر على الألسن ما قد نُسِبَ للنبيّ الكريم(ص): «إنما النصر صبر ساعة». ولكن يُلاحَظ بعد التقصّي والبحث أنّ النسبة ليست صحيحة؛ وإنما لا تبعد صحّة المضمون. ومن الآيات الكريمة التي تؤكّد وتصدّق هذا المعنى:

---

١ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، مصدر سابق، باب الحكم، ج ٤، الحكمة ١٥٣.

• يقول الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[آل عمران: ٢٠٠]. وفيها يربط سبحانه ما بين الصبر وتحقق النصر.. ووجه الربط هو أنّ الله يعِد المؤمنين بالفلاح ويرجّيهم إيّاه إن قاموا بتحقيق الشرط ألا وهو الصبر والثبات.

• يقول الله عز وجل: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾[البقرة: ١٥٥]. وقد جاءت الآية في إطار حديث القرآن عن الجهاد في سبيل الله، واختتمت بتبشير الصابرين. والأقرب في مضمون هذه البشارة وأكثرها انسجامًا مع سياق الآيات الكريمة[١] أن يكون النصر والظفر وتحقيق ما يبغونه من أجل أن يحصلوا عليه: «أعاد ذكر الصابرين ليبشّرهم... فأمر تعالى نبيّه أوّلاً بتبشيرهم، ولم يذكر متعلّق البشارة لتفخيم أمره فإنّها من الله سبحانه فلا تكون إلا خيراً وجميلاً. وقد ضمنها ربّ العزّة»[٢].

• يقول الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[البقرة: ١٥٣]. يمكن اعتبار هذه الآية من الآيات التي تتحدث عن النصر بشكل عام، وتشترط له الالتزام بقيم الإسلام وأركانه وعلى رأسها الصلاة والصبر.. فالاستعانة بالصبر هنا مقدمة للفوز ولنيل كل المبتغيات

١ - خاصّة أنّ هذه الآيات الخمس (١٥٣-١٥٧) من سورة البقرة لها سياق واحد كما يرى بعض المفسرين. انظر: الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج١، ص ٣٤٣.
٢ - محمد حسن الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٣٥٣.

ومنها النصر، قال سبحانه: ﴿وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ومن كان الله معه ويحيط به إحاطة قيوميّة -بحسب ما عبر عنه أحد المفسّرين- لن يكون إلا منتصراً.

٤. التوكّل على الله تعالى:

التوكّل على الله عز وجل من الفضائل الأخلاقيّة الإسلامية.. وهو أمر لا يمكن أن يكون خفياً على من له أدنى معرفة بماهية الأخلاق الإسلاميّة. وما يهمنا هنا هو التعرف إلى العلاقة ما بين التوكّل على الله وتحقق فعل النصر.

• قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾[الطلاق: ٣]. وهي أيضاً آية عامة مقرِّرة لمبدأ عام ألا وهو أنّ التوكّل على الله عز وجل يجعل الإنسان غني عن سواه، ومندفعاً لتحقيق مطالبه.. ومن الأشياء التي يجب فيها التوكّل على الله سبحانه وإزالة الطمع في غيره الحرب والقتال وبشكل خاص عندما يكون القتال والجهاد في سبيل الله.

• يقول الله سبحانه: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾[سورة آل عمران: ١٢٢-١٢٣]. وإنَّ دلالة هاتان الآيتان أكثر وضوحاً من دلالة سابقتهما، وذلك أنّ الآية الأولى تتكلم عن الاقتراب من إظهار العجز والفشل ، بعدها تدعو المؤمنين إلى أن يتوكلوا على الله سبحانه. أما الآية

الثانية فتشير إلى النصر الذي حققه المسلمون في غزوة بدرٍ، ويمكن أخذ دلالة من السياق هنا على الربط بين قيمتي الصبر والتوكّل.

• ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[آل عمران: ١٦٠]. هذه الآية تقلب المشهد، ولكنّها لا تلغي الدلالة على الربط بين المفهومين، فهي بدل أن تدعو إلى التوكّل من أجل طلب النصر، فإنها تدعو إلى التوكّل وذلك بالاعتماد على مبدأ عامٍّ وحقيقة كبرى هي حقيقة أنّ من يقف الله تعالى معه سينتصر وسيغلب، ومن يخذله ولا يقف معه سيخسر ولن يتحقق له فعل النصر مطلقاً.

وبشكل عام نقول بأن التوكّل على الله يزيد من نسبة الثقة، ويزيد العزيمة.. فمن يرى الله ظهيراً له ومعتمدًا، يكنْ أكثر قدرة على اتّخاذ المواقف القوية في اللحظات الصعبة. ومن المعروف أنّ كثيراً من الخسائر التاريخيّة سببها الضعف في اتّخاذ قرار مناسب في الوقت المناسب، والكثير من الانتصارات يكون سببها ازدياد نسبة الثقة بالركيزة والمعتمد.. بما يعني أن الله تعالى هو الرهان الأعظم والمستند الأكبر..

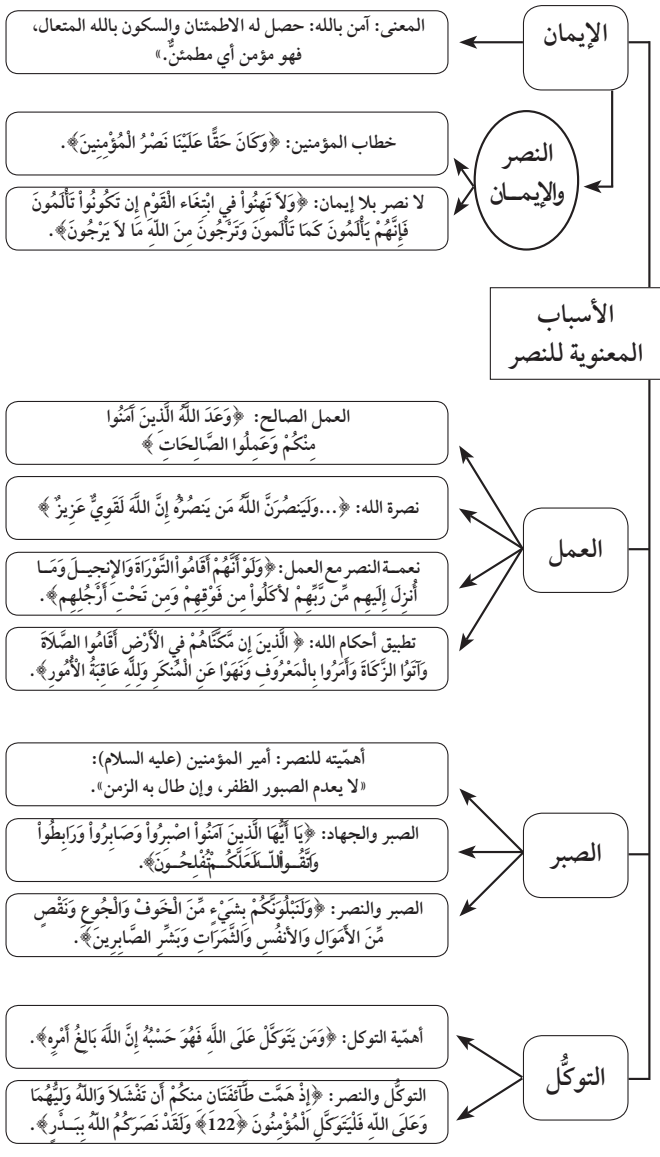
الإيمان
المعنى: آمن بالله: حصل له الاطمئنان والسكون بالله المتعال، فهو مؤمن أي مطمئنٌ.»
النصر والإيمان
خطاب المؤمنين: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.
لا نصر بلا إيمان: ﴿وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾.
الأسباب المعنوية للنصر
العمل
العمل الصالح: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾
نصرة الله: ﴿...وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾
نعمة النصر مع العمل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾.
تطبيق أحكام الله: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾.
الصبر
أهمّيته للنصر: أمير المؤمنين (عليه السلام): «لا يعدم الصبور الظفر، وإن طال به الزمن».
الصبر والجهاد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.
الصبر والنصر: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.
التوكُّل
أهمّية التوكل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾.
التوكُّل والنصر: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ منكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿122﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ﴾.

الفصل السابع

النصر ومعنى المدد الغيبيّ

وعد الله تعالى في كتابه بنصر المؤمنين وأهل الحق، ولكن رهن وعده بالنصر الحاسم بالإذن والتسديد الإلهي والمدد الإلهي.. والمدد الإلهيّ يعدُّ إعانة غيبية وواسطة خفيّة غير منظورة في النصر. وهذا ما يجعل النصر الحقيقيّ, نصر إلهي في أوله وآخره.. في بداياته ونهاياته.. لأن المؤمنين المرابطين المجاهدين توكلوا على الله ووضعوه نصب أعينهم، فأمدهم الله من عنده.. وهذه الفكرة أكّد القرآن الكريم عليها في موارد متعددة، وهذا التأكيد كان من أجل ألا ينسى البشر أساس التوحيد، ولكي يظلّ راسخاً في عقولهم مبدأ: (أن الله تعالى هو المؤثر في الوجود كله، ولا تأثير لغيره).

ففي الحروب ليس هناك مؤثّر حقيقيّ سوى الذات الإلهية، أما الملائكة -وغيرها من أنواع المدد والتسديد الإلهي- فلا يعملون إلا بأمر من الله سبحانه، أي أنهم ليسوا مستقلين في أي شيء عن إرادة الله.. حيث إنّ جميع الأمور في الواقع هي بيد الله عز وجل، وتحدث بأمره تبارك وتعالى.

● أولاً- المدد الإلهيّ.. شروط وأنواع:

وبطبيعة الحال لا يمكن للمدد الإلهي والتسديد الغيبي -الذي يتلقاه المجاهدون من الله أثناء جهادهم- أن يتحقق لوحده من دون مقدمات وشروط، لعل من أهمها:

١ - بذل المجاهدين لأقصى الجهود للاستفادة القصوى من كل قدراتهم وإمكانياتهم المتاحة بين أيديهم في مواقع القتال والجهاد، دون أدنى كلل أو ملل أو يأس.

٢ - انتظار المدد الغيبيّ من الله ومساعدته، إذا لم تفِ تلك الطاقات الظاهرية والقدرات في رفع احتياجات المسلمين ومشاكلهم، لأنه في تلك الحالة سيضع الله عز وجل تلك الأساليب الغيبية والطرق في خدمة المقاتلين المجاهدين, وذلك وفق ما تقتضيه الحكمة الإلهية والحاجة الحقيقية.

وقد أيّد القرآن الكريم هذه النتيجة إذ تكلمت العديد من الآيات الكريمة عن أنّ الإمدادات الغيبية من الله ليست مطلقةً بل لها ظروفها و شروطُها.. وبإمكاننا تصنيف المدد الإلهيّ إلى نوعين اثنين ؛ معنويّ ومادّيّ. وفي هذا الصدد يتم طرح سؤال عن ماهية هذه الامدادات والتسديدات الإلهية، وأساليب تحققها. وللإجابة عن هذا السؤال, سيتمّ التحقيق في الآيات التي وردت في القرآن الكريم والمتعلقة بهذا الموضوع. ونستطيع تقسيم الامدادات الغيبية والتسديدات الإلهية إلى أنواع عدّة هي:

١. السكينة:

وهي إحدى صفات النفس البشرية التي تم الإشارة إليها عدّة مرات في القرآن الكريم، وأحياناً بشكل مباشر، وفي وأحياناً أخرى عبر الإشارة إلى النعاس الذي يطال المؤمنين في ساحات الحروب، ويجعلهم وكأنّهم في

أسرَّتهم وفي بيوتهم. وهذه الصورة تكتمل عندما تربط السكينة التي تتنزل على قلوب المؤمنين بالخوف الذي يقذف به الله تعالى قلوب الأعداء.

• يقول الله عز وجل: ﴿**وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ**﴾[سورة الفتح، الآيتان ٣-٤]. تتحدث الآيتان السابقتان عن فعل النصر الذي قد منّ الله تعالى به على الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) ثمّ تذكر أمرًا يبدو أنّه عبارة عن السبب الذي يقود إلى زيادة الإيمان ومضاعفته وهو السكينة التي زُرعت على قلوب المؤمنين فزادت من إيمانهم، وسمحت لهم ولقائدهم بالنصر وليس أي نصر إنما هو النصر الذي يصفه الله عز وجل بأنّه عزيز، أبهر العدو وجعلهم يائسين من التفكير في طلب ثأرهم القديم الذي هو الذنوب التي تقدّمت وتأخّرت كما يلاحظ بعض المفسّرين.

• قال عز وجل: ﴿**لَقَدْ رَضِىَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾[سورة الفتح، الآية ١٨]. المحور في هذه الآية هو التحدث عن المسلمين ممن بايعوا الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) في الحديبية قبيل فتح مكّة بقليل من الزمن، والدلالة واضحة فيهذه الآية على أنّ السكينة التي ملأت قلوب المسلمين الذين بايعوا الرسول، هي التي أدت إلى تحقق فعل «النصر» وجعلته بمثابة الثواب القريب لأهل السكينة والاطمئنان إلى خيارات الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله).

٢. قذف الرعب في قلوب الأعداء:

وهذا العامل يمكن عدّه من أهم عوامل وطرق تحقق الإمداد الباطنيّ والروحيّ لأهل الحق في مواجهتهم لأهل الباطل على طريق هزيمتهم، وهو طريق إلقاء الرعب وإيجاد الخوف وبث اليأس في قلوب المشركين والكفّار ، أي سيطرة الخوف والرعب على نفوس الكافرين في ساحة المعركة، ما يجعلهم يصابون بالقلق والاضطراب والانقسام والتشتت بحيث يصبحون فاقدي القدرة على الاستمرار في المعركة، مما يتسبب لهم بالهزيمة النفسية وعدم الثبات، فلا يجدون مخرجاً سوى الفرار والهروب..

لقد تمّ ذكر هذا العامل الهام والمدد الروحيّ في موارد أربعة من القرآن الكريم بشكلٍ قاطعٍ ومؤكّدٍ.

ففي موردين يوعد الله المسلمين بأنّه سيزرع الرعب في قلوب أعدائهم خلال المعركة لسلبهم الجرأة والشجاعة على قتال المسلمين.

وفي الموردين الآخرين تتحدَّث الآيات الكريمة عن تخويفٍ مُسبَق للعدو ليكون هذا من العوامل التي تساعد على انتصار المسلمين. وسيتم الاكتفاء في هذا الموضع بعرض الآيات القرآنية بشكل سريع:

قال الله سبحانه ﴿**سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِين**﴾[آل عمران: ٥١].

وفي آية ثانية يُبيّن الله تعالى عامل نصر المسلمين بهذه الصورة، إذ قال

عز وجل: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[الأنفال: ١٢].

٣. التصرّف بالنفوس:

يوجد طريقٌ ثاني من طرق الإمداد الباطنيّ الغيبيّ لأهل الحق, وهو عبارة عن التصرّف الإلهيّ في نفوس المسلمين المؤمنين, فيجعل عدد الكافرين في أنظارهم قلّة قليلة، وقدراتهم ضعيفة وإمكانياتهم محدودة، كي لا يخاف المؤمنون من مظاهر القدرة والقوّة عند العدوّ فيهابوا ويتراجعوا.. وهذا مظهر من مظاهر الإيمان الروحي العميق والراسخ عند المؤمنين، فالمؤمن يثبته الله، ويتصرف فيه، لأنه أسلم نفسه وروحه وكله له تعالى.

ومن ناحية ثانية, يتصرف الله في نفوس الكفّار فيجعلهم ينظرون باستخفاف إلى معسكر المسلمين، ويعدّون جيش الإسلام قلّة وضعفاء ومنهزمين سلفاً، و يؤثّر هذا الاستخفاف في الخطط الحربية للعدو، من الاستهتار والتثاقل وعدم نقل السلاح والتجهيزات كلها إلى ميدان المعركة، وألا يتم حضور الجيش بأكمله إلى ساحة الحرب، وهذا ما يجعلهم يقعون في سوءِ تقديرٍ لأعداد جيش المسلمين وإمكاناته الحقيقية ممّا يدفعهم في النهاية إلى الهزيمة.

وبهذا الخصوص قال الله سبحانه: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً

وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ*وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾[الأنفال، الآيتان ٤٣-٤٤].

٤. تثبيت الأقدام على نهج الحق:

قال الله تعالى: **﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾**[محمد، الآية ٧].

تحثُّ هذه الآية الكريمة المؤمنين (وتحرّضهم وترغّبهم) على الجهاد ضد أعداء الحقّ من منطلق كونه واجباً وتكليفاً شرعياً وركناً أساسياً للدفاع عن دين الله.. حيث يعبرّ الله عن الجهاد بكونه «نصرة اللّه» ليوضح مدة أهميته القصوى.. ويربطُ تعالى بين أداء الواجب والتكاليف من جهة أولى كمقدمة وبين النصر من جهة ثانية كنتيجة، وذلك بأن يضع نور الإيمان في قلوبهم ، والتقوى في أرواحهم ، و القوّة والتصميم في إرادتهم بشكل أكبر، و الهدوء والاطمئنان في أفكارهم. ويرسل الملائكة من أجل إمدادهم ونصرتهم، ويغيرّ سياق الأحداث لمصلحتهم، ويجعل قلوب الناس تهوي لهم، و كلماتهم تنفذ إلى القلوب، وتصبح أنشطتهم وجهودهم مثمرة ولها فائدة الخ. ولكن من بين كلّ أشكالِ النصرة يؤكّد سبحانه على مسألة تثبيت الأقدام، وذلك لكون الثبات أمام الأعداء يعتبر أهمّ رموز الانتصار، وإنّما يكسبُ الحرب الذين يصمدون ويستقيمون

أكثر. لهذا كان دعاء طالوت ومن بقي ثابتاً معه ممن آمنوا -على قلّتهم وضعفهم، عند مواجهتهم لجيش جالوت الجرار والكبير: «رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ».. فإن الله تعالى وقف معهم وثبتهم وأمدهم بنصره، وذلك لثباتهم هم في تل المواجهة أيضاً.

٥. إنزال الملائكة:

لا شك بأنه عندما تندلع المعركة بين ضفتي الحقّ والباطل، تسقط العديد من الاعتبارات والحدود بين العالم الطبيعي والعالم الذي فوقه، وإذا سخّر الإنسانُ الطبيعيّ ذاته في خدمة الأهداف العليا الإلهيّة والقيم النبيلة السامية، فالله تعالى سيسخّر له مخلوقات ما فوق الطبيعة ويجعلها ثقف معه وتسدد خطاه وتؤيده، وتدافع عنه. وقد حدّثنا القرآن الكريم عدّة مرّات عن تأييد الله للمؤمنين في زمن الرسول (صلى الله عليه وآله) بالملائكة.. منها:: ﴿**بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ**﴾[آل عمران، الآية ١٢٥].

﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾[الأنفال، الآية ٩].

قال سبحانه في آية ثانية في نفس السياق: ﴿**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ**﴾[الأنفال: ١٢]. نعم من المحتمل أن يكون الحديث عن الغيبيّات

و الغيب في عالم الجيوش وفي زمن تحوّلت المادّة فيه إلى إله يتم عبادته من دون الله أمراً مستهجنًا، هذا ولكنّ الفكر الذي يكون مستنداً إلى الوحي ويجعل منه ركناً أساسياً إلى جانب العقل أو بعده أو قبله، ولكنّه لا يركن إلى الإيمان من دون العقل ولا إلى العقل من دون الإيمان، ليس بإمكانه استبعاد أمور كهذه لا في زمن الرسول الكريم(ص) ولا في زمن آخر غيره، فالوحي هو الذي دلّ ويدلّ على مثل هذا المدد والتسديد والتأييد، ولم يقم بنفي حدوثه في كافة الأزمنة إذا تشابهت الظروف و صدقت النوايا. والعقل أكثر ما يمكن أن يفعله هو الصمت وقول ليس لي طاقة به، فلا يوجد أي دليل عقلاني قد يحكم باستحالة المدد الإلهي الغيبيّ، إن لم نقل أنّ العقل قد يحكم بأهمية هذا الأمر في عدد من المواقع والاستثناءات الخاصّة من باب اللطف الذي هو مفهوم كلاميٌّ تتطلبه صفات الله عز وجل وعدله وحكمته.

٦. الريح والمطر:

إن أراد الله شيئاً سخّر له جميع ما خلق من مظاهر طبيعية وما خلفها. وممّا سخّره الله عز وجل في خدمة جيوش المؤمنين الريح والأمطار. وقد قمنا بالإشارة سابقاً إلى المطر والذي كان له دور مهم في ترسيخ إيمان المسلمين في معركة، وقد قيل في دور المطر بأنّه كان من أجل رفع وساوس الشياطين وتشكيك المسلمين في دينهم وأنّهم يؤدون الصلاة

وهم على جنابة والماء تحت سيطرة المشركين. وقيل إنّ مخيّم المسلمون كان في أرض من رمال لا تثبت فيها الأرجل، فأنزل الله الأمطار لترطيب هذه الأرض وتثبيت مواقع أرجلهم. وأيًّا كان فإنّ الآية المشار إليها تشير إلى تسخير الله عز وجل المطر وهو من المظاهر الطبيعية لخلق الله من أجل خدمة الغايات والأهداف العسكرية للمسلمين.

وأما الرياح فهي أحد جنود الله التي سخّرها في خدمة أغراض كثيرة، فهي طريقة لتعذيب بعض الأقوام الماضية، وهي إحدى الجنود التي تشارك مع جنوده المؤمنين في التصدي لأعدائهم، قال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا**﴾[الأحزاب، ٩].

ومن عوامل الطبيعة للمدد الإلهيّ والتي تم الإشارة لها في القرآن الكريم يوجد المطر، ففي أحد الآيات الكريمة تناول القرآن هذا الموضوع فقال: ﴿**إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ**﴾[الأنفال: ١١].

تشير هذه الآية إلى وقائع موقعة بدر، إذ أنه في الليلة التي سبقت هذه المعركة أنزل الله مطر رحمته مما جعل الأرض تحت أقدام الجيش الإسلامي سهلة ورطبة فبسّطت لهم أسلوب التحرك والتنقل في الأرض وإجراء المناورات الضرورية في الميدان، بالإضافة إلى التخلّص من تأثير

التراب والغبار الذي يعيق التحرك في القتال وتعمي العيون وتسبب الضرر للبصر.

أما في المعسكر الخاص بالكفّار فالمطر كان شديداً، الأمر الذي جعل الأرض من تحت أقدامهم كلها وحل وليست مستقرة، فهذا ما أعاق تحركاتهم ومناورتهم العسكرية، وهذا كان عاملاً أدى إلى هزيمتهم.

كان هذا المطر للمسلمين نوعاً من الإمداد الغيبيّ والرحمة الإلهية، من أجل أن يصير المجاهدون أكثر كفاءة ونشاطاً وأكثر تحمّساً وثباتاً، وكان سبب لرحمةٍ خاصة لهم من ناحية كونهم على طهارة ونظافة ظاهرية وروحية وتأمين ماء الشرب وغيرها من النعم، وهذا كله بفضل المدد الإلهيّ.

٧. في وصية أمير المؤمنين(ع) حول النصر:

في الختام ننقل هنا كلمات للإمام علي(ع) في وصيّة لابنه محمد بن الحنفيّة وذلك عندما قام بإعطائه الراية في أحد معاركه، فأوصاه بعدة وصايا أهمها مقتبس من الآيات المشار إليها أعلاه: «تَزُولُ الْجِبالُ وَلا تَزُلْ! عَضَّ عَلَى ناجِذكَ. أَعِرِ اللَّهَ جُمْجُمَتَكَ. تدْ فِي الأَرْضِ قَدَمَكَ. ارْمِ بِبَصَرِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ، وَغُضَّ بَصَرَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ سُبْحانَهُ»[1].

١ - شرح النهج لابن أبي الحديد، قسم الخطب، الخطبة ١١،

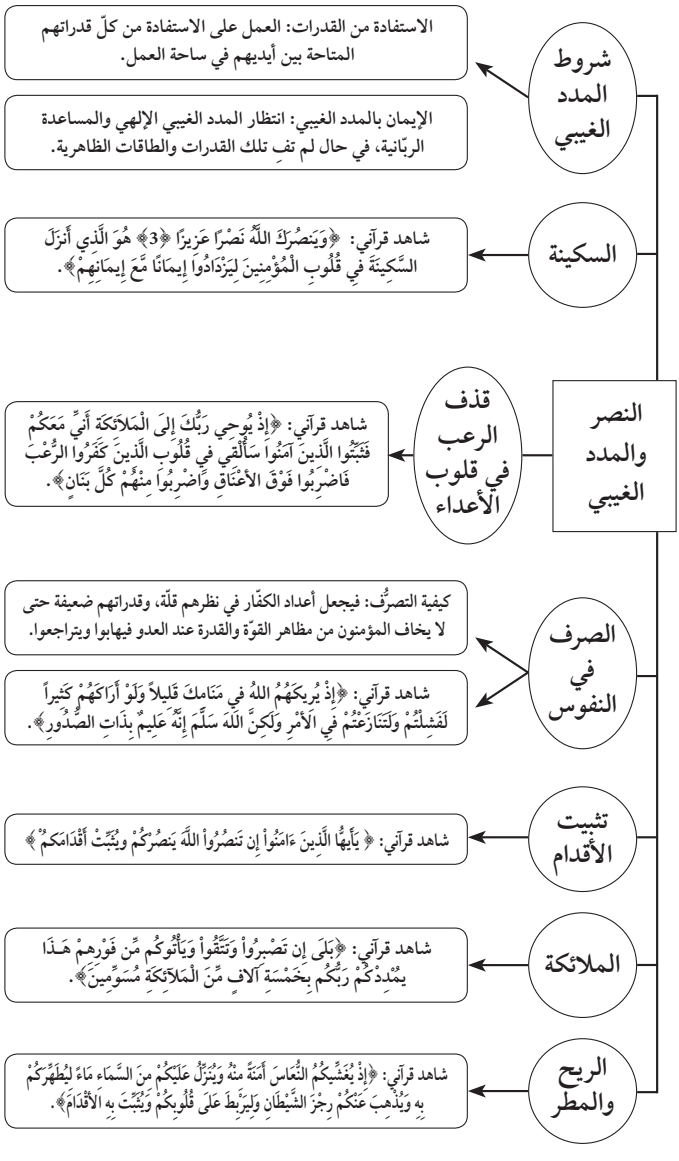
النصر والمدد الغيبي
شروط المدد الغيبي
الاستفادة من القدرات: العمل على الاستفادة من كلّ قدراتهم المتاحة بين أيديهم في ساحة العمل.
الإيمان بالمدد الغيبي: انتظار المدد الغيبي الإلهي والمساعدة الربّانية، في حال لم تفِ تلك القدرات والطاقات الظاهرية.
السكينة
شاهد قرآني: ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿3﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾.
قذف الرعب في قلوب الأعداء
شاهد قرآني: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾.
الصرف في النفوس
كيفية التصرُّف: فيجعل أعداد الكفّار في نظرهم قلّة، وقدراتهم ضعيفة حتى لا يخاف المؤمنون من مظاهر القوّة والقدرة عند العدو فيهابوا ويتراجعوا.
شاهد قرآني: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.
تثبيت الأقدام
شاهد قرآني: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾
الملائكة
شاهد قرآني: ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.
الريح والمطر
شاهد قرآني: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾.

الفصل الثامن

معيقات النصر وموانعه

عندما ترتفع الموانع، لا تؤثّر العلّةُ أثرها، ولا ينتج السبب مسبّبه.. فالأبنية لا تعلو بجهود البنّائين فقط إنما بكفّ الهادمين عن الهدم والتخريب. وإنّ الدواء لا يشفي المريض إن لم يقترن بالحمية أثناء المرض. وبهذا الشكل تحدث أمور مثل النصر في الحياة والمجتمع في كل ما يتعلق بحركة الإنسان كفاعل أساسي.. كما لنصر أسبابه المشار إليها سابقاً، ولكن له أيضًا معيقات وموانع تبطل فاعليّة تلك الأسباب والمسببات، وقد تحول دون تأثيرها. وسنسير في البحث الحالي عن الموانع و الأسباب أي سيتم محاولة الاهتداء بهدي القرآن الكريم لاكتشاف موانع النصر ومبطلات تلك الأسباب.

١. التنازع والانقسام:

تحدث القرآن الكريم في مواضع عديدة عن أهمية وجود حالة من الانسجام الحقيقي ما بين المجاهدين وبين وحدة أهدافهم من الأمور، وذلك كشرط من شروط تحقق النصر، بما يعني أن التفرقة والتنابذ وتعمق روح الفرقة وتشتت قلوب المجاهدين هي أول الخطوات نحو الهزيمة:

• قال عز وجل: ﴿**وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾[الأنفال: ٤٦]. والتنازع هو الخلاف الذي يحصل بين من

يجاهد على طريق إحقاق الحق وسبيل الله لأسباب عدة من بينها: الطمع الدنيوي، والتنافس على المغانم أو المناصب.. وما يلفت الانتباه هو أنّ الآية تشير بشكل خفيٍّ إلى أنّ التنازع لا يحدث في العادة بأوقات الشدائد والضعف، وإنما يحدث في حالات القوّة وأيضاً الرخاء. ويتم الاستفادة من هذا المعنى من خلال أن الله تعالى ينهى عن التنازع لأنه يؤدي للفشل وذهاب الريح أي ذهاب القوة.. ويُلاحظ وفق عدد من المفسّرين أنّ هذه الآية قد نزلت بعد معركة بدرٍ والتي بدّلت صورة المسلمين عند أنفسهم وعند الأعداء.

٢. المعصية والمخالفة للأوامر:

وفي الآية آنفة الذكر أمر بطاعة الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله) قبل النهي عن التنازع الذي يسبّب الفشل. والبشريّة قد اهتدت إلى أمر كهذا من خلال تجربتها أو ربمّا من خلال هدي الله عبر أنبيائه السابقين. ولهذا لاحظنا كيف شاعت القاعدة العسكريّة المشهورة التي تقول للجند: «نفّذ ثمّ اعترض». وقد حاول المسلمون وجربوا خلال تاريخهم المعاصر للرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله) أمراً كهذا وذاقوا وبال مخالفتهم لأوامر قائدهم وذاقوا مرارة الخسارة ولو إلى حين، وذلك عندما قام الرماة في معركة أحد بترك مواقعهم وذهبوا للقيام بأمور أخرى مثل السعي للحصول على الغنائم، فكان ما كان ممّا سطّرته كتب السيرة.

٣. تولّي غير الله من الأصنام الأرضية:

• قال عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً**﴾[آل عمران: ١١٨]. تتكلم هذه الآية عن عدد من المسلمين ممن كان لهم علاقات صداقة ومودّة مع بعض المنافقين وكانوا يتّخذونهم بطانة أي أصحاباً مقرّبين من أجل كسب بعض المطامع. فلفت الله سبحانه أنظارهم ونهاهم عن شيء كهذا لأنّ المنافق لا يترك أي فرصة للوثوب على المسلمين إلا وقام باستغلالها من أجل أن يسبب فسادهم.

• قال عز وجل: ﴿**وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾[الأنفال: ٤٨]. يناله إلا الخذلان في وقت هو أحوج ما يكون فيه إلى من ينصره ويعينه، وفي لحظاتٍ كهذه يتخلّى جاره ووليّه عنه ويعلن أنه بريء منه بشكل ساخر مدّعيًا خوفه من الله سبحانه.

٤. انقلاب القيم والمفاهيم القيمية:

يصيب بعض الجماعات الإنسانية المخلصة العديد من الابتلاءات في عدد من حالات النصر وذلك بحدوث انقلاب في المفاهيم والقيم الأخلاقية، وتنقلب من مجموعات مظلومة إلى أخرى ظالمة، ومن زاهدة إلى مُترفة.. وهنا يكون أول شيء قد تفقده هذه المجموعة (التي

يصيبها انقلاب في القيم) هو خسارتها للنصر الذي حققته بسبب علاقتها بالله.. حيث أنه تعالى يمنح النصر فقط لمن يستحقّه، ويقوم بسلبه ممّن لا يستحقّه.. قال عزّ وجلّ: ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾[الحج: ٤١]. أول آية من الآيتين فيها وعدٌ بالنصر لمن تكون نيته مخلصة ويسعى جاهداً لنيل رضاه تعالى، منطلقاً في سبيله وفي خدمة غاياته. والقيد الذي يذكره عزّ وجلّ في الآية الثانية هو قيد عدم التحوّل إلى موقع اتجاه آخر، فإنَّ الأمّة التي تستحقّ النصر هي التي تظلّ ثابتةً على أهدافها التي تسعى إلى تحقيقها. بينما الأمّة التي تنقلب على عقبيها فهي لا تستحقّ استمرار اللطف ودوام الرعاية: ﴿**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ**﴾[الأنعام: ٦].

٥. تسريب الأسرار وعدم الكتمان:

الحرب حالة لها مواصفات خاصة لا تنطبق على حالة السلم.. ففيها الخدعة والأسرار، وتسريب خفايا الشؤون القتالية العسكرية، وفيها كشف الخطط.. وهذه كلها عوامل قد تؤدي إلى زيادة النصر حتى وإنْ خيّم فوق

رأس المقاتلين أيّاً كان هذا الجيش، ومهما كانت الراية التي يُقاتل الجند تحتها، إنْ لم تقوم باتخاذ التدابير المخالفة التي تُرجع الأمور إلى نصابها.
وقد جاءت في القرآن توصيات بهذا الخصوص منها:
- يقوم عز وجل: ﴿**وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾[النساء: ٨٣]. هذه الآية تنهى عن إذاعة الشائعات فيما بين المجاهدين لأنها ستترك حتماً الكثير من الآثار السلبية التي قد تضغط على نفسيتهم وروحيتهم سواء كانت تستهدف التأمين عليهم، أو كانت تستهدف تخويفهم.. والقرآن الكريم يوصي في حالات كهذه فيما لو وصل أي خبرٍ إلى مسامع أحد المسلمين أن يقوم بنقله إلى ذوي الخبرة وقادة المعركة ليستطيعوا تفسيره والتصرّف معه بشكل مناسب.

٦. إلقاء السلاح وترك الحذر:

إنّ حالة الحرب هي عبارة عن حالة الحذر المستمر من غدر الأعداء في أيّ لحظة وبشكل خاص مع عدوٍّ غير ملتزم بالمعايير الخلقية للقتال. وبالتالي لا يجب على المسلمين بأيّ معركة أن يقيسوا الأعداء على أنفسهم، ولا خلقه على خلقهم. ومن هنا كانت التوصية في القرآن الملفتة للمؤمنين بألا يتركوا سلاحهم حتّى في الصلاة، وألا ينصرفوا إلى الصلاة والانشغال بها جميعًا مما يمنح الأعداء الفرصة لينالوا منهم: ﴿

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[النساء: ١٠٢]. تفيد هذه الآية بتشريعها للصلاة بشكل خاصّ يسمح للمسلمين بأن يتناوبوا في الصلاة وراء الرسول (صلى الله عليه وآله) أنّه لا يجب على المسلم ترك الحذر والانشغال عن أعدائه حتّى في الصلاة وتدعوه كما في الآية التالية إلى تأجيل الصلاة وأدائها بالشكل الصحيح إلى وقتٍ تحدث فيه الطمأنينة. فإن كانت الصلاة التي هي عبادة المسلمين وشعارهم تتأخّر أهميّة ممارستها بالشكل المتكامل لمصالح أكثر أهمية من مصالح مواجهة العداء فما بالك بغيرها من المصالح و المكاسب التي قد يفكّر المجاهدون في الحصول عليها أو حفظها في ميدان المعركة؟

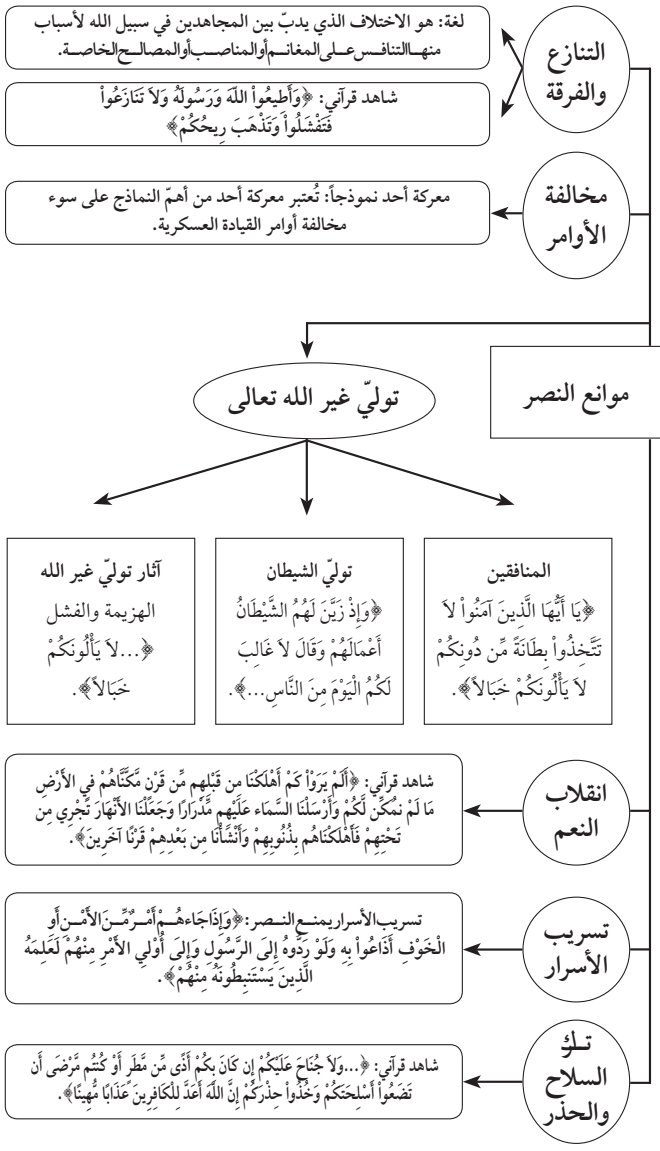
التنازع والفرقة
لغة: هو الاختلاف الذي يدبّ بين المجاهدين في سبيل الله لأسباب منها التنافس على المغانم أو المناصب أو المصالح الخاصة.
شاهد قرآني: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾
مخالفة الأوامر
معركة أحد نموذجاً: تُعتبر معركة أحد من أهمّ النماذج على سوء مخالفة أوامر القيادة العسكرية.
موانع النصر
تولّي غير الله تعالى
المنافقين
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾.
تولّي الشيطان
﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ...﴾.
آثار تولّي غير الله
الهزيمة والفشل
﴿...لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾.
انقلاب النعم
شاهد قرآني: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا من قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾.
تسريب الأسرار
تسريب الأسرار يمنع النصر: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾.
تـرك السلاح والحذر
شاهد قرآني: ﴿...وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

الفصل التاسع

القوانينُ والسّنَنُ التّاريخية المُرتبطة بقضيةِ النّصر

أولاً- سنّة التداول:

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[آل عمران: ١٤٠].

رغم أن النصر نعمة إلهية (وسنة وقانون تاريخي محكم)، لكنها لا تتحقق لوحدها من دون توفر شروط ومقدمات ومناخات أولية مطلوب من المجاهدين.. والحالة المعاكسة للنصر وهي الهزيمة والانكسار العسكري، خاضعة كذلك إلى قوانين تنطبق على الذين يتقاعسون عن توفير وتأمين شروط النصر وممهداته ومقدماته الرئيسية الأولى. والنصر إنْ لم يتحقّق فينبغي تحقُّق شيء آخر مكانه، وهو بدوره أمر لا يأتي فجأة ولا مصادفةً، ولا يحدث من دون وجود نظم وقوانين تحكم حركته.. فلا صدفة أبداً في كل هذا الكون الواسع الذي أوجده وخلقه الله عز وجل: **﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾**[الحجر: ٢١]. ويقول تعالى: **﴿الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾**[الفرقان: ٢].. وهذا يعني

أنه لا مكان ولا محل أبداً للفوضى والعبيثة واللا معنى في نظام الوجود.. فهو نظام صادر من حكيم مطلق قادر ومقتدر ومتعال.

● **أولاً: المبادرة كشرط لتحقق النصر:**

واستناداً إلى ذلك يقوم بالتضحية ومن البديهي أن نقوم بطرح السؤال التالي: إذا الإنسان لم يستفد من سنّة النصر ولم تتوافر فيه الشروط المطلوبة لتحقيقه وانطباق قوانينه عليه، فما السنّة أو السنن الأخرى التي تظهر وتنطبق على الفرد فتقوم بإخضاعه لها؟ وبعبارة ثانية: إحدى الصياغات القانونيّة التي تم التعبير بها عن النصر هي: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾[محمد: ٧]. وهذه العبارة التي أخبرنا الله عز وجل بموجبها عن النصر تشير إلى أنّ النصر مشروط بالنهوض بأعباء المسؤوليّة وبالمبادرة ، فإن لم يتوافر الشرط، تثبت القاعدة التي ذكرها علماء الأصول عندما قالوا: «المشروط عدمٌ عند عدم شرطه». ومن هنا يُفتح المجال للبحث عن سنن وقوانين أخرى يمكن تطبيقها على الإنسان نفسه، ومن هذه السنن سنّتا: الاستبدال والتداول. وهذا ما سنبدأ الحديث عنه فيما سيأتي.

● **ثانياً: سنّة التداول:**

يمكننا من خلال التأمل في آيات قرآنية عديدة إثبات وجود مثل هذه

السنّة التاريخية. ولكن ما المقصود بالتداول في اللغة وفي المصطلح..

١. التداول لغةً:

يقول صاحب مقاييس اللغة: «دول أصلان، أحدهما يدلّ على تحوّل شيء من مكان إلى آخر، والآخر يدلّ على ضعفٍ واسترخاء. فأمّا الأول فقال أهل اللغة: تداول القوم إذا تحوّلوا من مكانٍ إلى مكان. ومن هذا الباب تداول القوم الشيء بينهم: إذا صار من بعضهم إلى بعض. والدَّولة والدُّولة لغتان، وإنّما سُمّيا بذلك من قياس الباب؛ لأنّه أمرٌ يتداولونه فيتحوّل من هذا إلى ذاك ومن ذاك إلى هذا»[1]. وبناء على هذا المعنى اللغويّ بالإمكان أن نفسّر التداول في المجال الاجتماعي، بانتقال الغلبة والتفوّق من جماعة إنسانيّة إلى أخرى حسب ضوابط وشروط يمكن البحث عنها من عدّة زوايا، وحسب منهجيّات علميّة متعددة. وما يهمّنا حقّاً هو البحث عنها من وجهة نظرٍ دينيّة في القرآن والحديث.

٢. التداول في القرآن الكريم:

في القرآن الكريم عدّة آيات تفيد هذا المعنى البعض منها أوضح من غيرها وفيما يأتي أهمّ الآيات التي تفيد هذا المعنى:

• يقول عز وجل: ﴿**إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّه الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ**

---

1 - أحمد بن فارس بن زكريا، **مقاييس اللغة**، مادّة: «**دول**».

مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[آل عمران: ١٤٠].

• يقول عز وجل: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[آل عمران: ٢٦].

• يقول عز وجل: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحجّ: ٤٠].

• يقول عز وجل: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الأنعام: ١٢٨]. وغيرها من لآيات التي تتكلَّم عن أن الله يورث الأرض وينقلها من أفراد إلى آخرين، ومن جماعة إنسانية إلى أخرى.. ولنكتفِ بهذا القدر من آيات الله، على أن نأخذ من الآية الأولى مثالاً ونموذجاً من أجل تحليله وتعلم الدروس والمواعظ المحيطة بسنّة التداول منها.

● ثالثاً: مع آية ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾.. في تحليلها والعبر المستفادة منها:

بدراسة هذه الآية وتحليلها يمكن أن نقرأ فيها ومن خلالها مجموعة اعتبارات ودروس عملية تتعلق بموضوع النصر والهزيمة:

• إنّ الله أقام الوجود كله، ومنه الوجود البشري، على أسس وقوانين، وسلسلة من العلل والمعلولات.. ولهذا ليس مضموناً لأي إنسان أن يصل إلى غايته وهدفه، ولو كانت مقدسة، إذا لم يمر بمراحل من العمل والجهد والتحضير والتمهيد العملي المكلف.. أي أنه تعالى لا يضمن بقاء الحال على ما هو عليه لأي من البشر.. فالدنيا هي دار للعمل وللتضحية وليست للنعيم المقيم، فالنعيم الدائم والخلود مكانه فقط الآخرة. أما الدنيا فهي دار للعملٍ وللعناءٍ.. بما يعني أنه في الدنيا يتساوى المؤمنون وغيرهم في خضوعهم لنفس الضوابط والمعايير والقوانين التي يتحكم بحركة المجتمعات البشرية.

• إن قضية النصر والهزيمة (الانتصار على أحد، وهزيمته) لا تتحقق لأي كان مجاناً، بل لا بد لها من مقدمات وشرائط ذاتية وموضوعية.. والنصر ليس من الضروري أن يلازم المؤمنين دائماً، مثلما أن الخسارة والهزيمة ليس من الضروري أن تلازم الكفار دائماً.. وإذا ما انتصر المسلمون في موقع ما هنا وهناك، فعليهم أن لا يغترّوا بهذا النصر، ولا يغفلوا عن قدرة الله سبحانه على نقل السلطة منهم إلى سواهم.. وإن خسروا وانهزموا فعليهم أن يمنعوا أي مظهر لليأس والإحباط من الولوج والتغلغل في قلوبهم، فالله بمقدوره وقدرته -جل وعلا- أن يقلب موازين القوى مرات ومرات.. وبشكل خاص أنّ سنّة التداول وناموسها الكوني يقتضي في النهاية بأن ينتهي الأمر إلى انتصار ساحق

لجبهة الحقّ على جبهة الباطل، حتى وإن ربح الباطل جولة ما من الجولات: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾[القصص: ٥]. ومن هنا فإن الله عز وجل يلفت نظر الناس إلى أنّ الأمر قد وصل لهم بعد أن أفلت شمس أمم قد سبقتهم: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾[يونس: ١٤].

• ولا شك بأن «قانون التداول» يمنح المسلمين -ومجمل الحركات الاجتماعيّة التي تنشط في بيئتهم واجتماعهم- الحق بإعادة النظر في الدعاة الذين يسقطون في منتصف الطريق عند أوّل اختبار، وهو التمحيص الذي أشارت له الآية. وفي هذا الصدد يقع الكلام المنسوب إلى الحسين(ع): «إنَّ النّاسَ عَبيدُ الدُّنْيا وَالدِّينُ لَعقٌ عَلى ألسِنَتهم، يَحُوطُونَهُ ما دَرَّت مَعائِشُهُم، فَإذا مُحِّصُوا بِالبَلاءِ قَلَّ الدَّيّانُونَ»[١].

● رابعاً: شروطُ التّداول وموانعه:

لا تتحقق سنة التداول كقانون تاريخي محكم من دون شروط يذكرها القرآن الكريم.. وأهمّ هذه الشروط:

• الظلم والطغيان والتّجبّر، وذلك كما في قوله سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ**

١ - ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول عن آل الرسول، ص٢٤٥.

أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[يونس: ١٣-١٤]. وذلك أنّ هذه الآية(الأرض) تعاقبت عليها أمم وأجيال، والهلاك الذي لحق ببعض المجتمعات والدول والحضارات ليس من الضروري أن يكون إبادة ماديّة، أي يعني ذلك أن يموت أبناء الأمّة جميعهم بعذاب ينزله عليهم الله ؛ إنما هو أكثر عمومية من ذلك فقد يكون هلاكاً للأمّة أي تبديد الوحدة الاجتماعيّة التي تربط فيما بين أبنائها. وقد تمت الإشارة إلى هذا الأمر مسبقاً.

• والتمرّد والمعصية على إرادة الله وشريعته كما في قوله سبحانه: **﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾**[سورة الأنعام، الآية ٦]. والآية تفيدنا عن حالة التمكين لإحدى المجتمعات (الجماعات) الإنسانية، وتوفير الله سبحانه لها جميع مقومّات البقاء؛ ولكن عندما تمرّدت على أمر الله وأدارت الظهر للقيم والمبادئ الدينيّة، عجنتها وطحنتها سنّة التداول.. واستبدلهم الله عز وجل بجماعة وقوم آخرين.

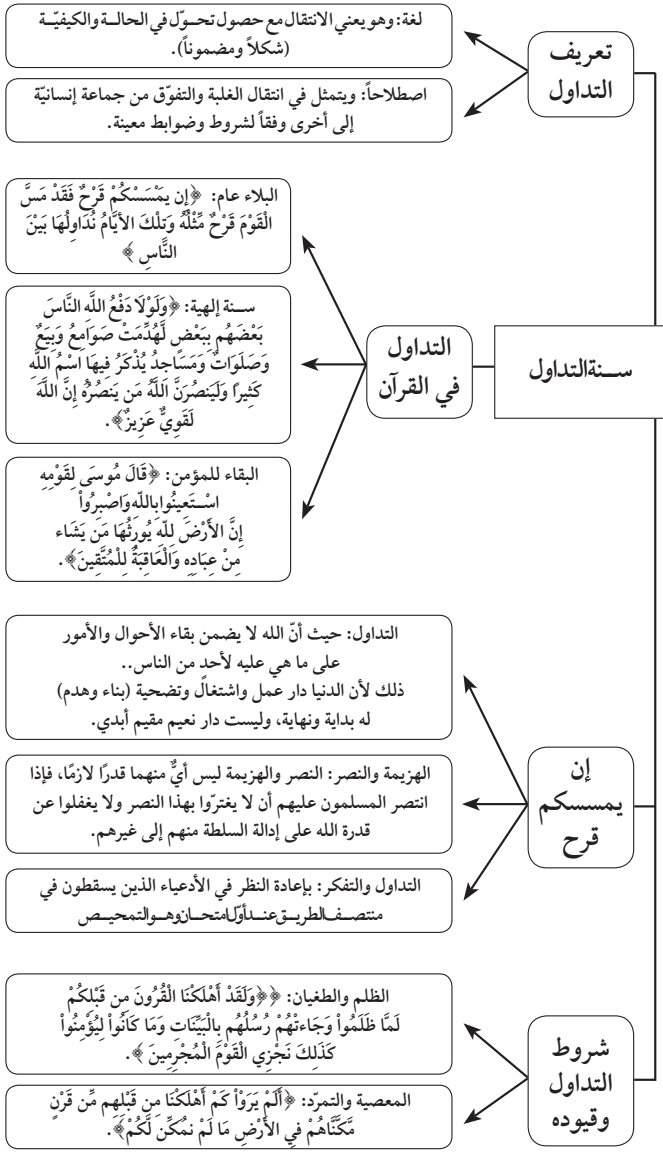
سنة التداول
تعريف التداول
لغة: وهو يعني الانتقال مع حصول تحوّل في الحالة والكيفيّة (شكلاً ومضموناً).
اصطلاحاً: ويتمثل في انتقال الغلبة والتفوّق من جماعة إنسانيّة إلى أخرى وفقاً لشروط وضوابط معينة.
التداول في القرآن
البلاء عام: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾
سنة إلهية: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.
البقاء للمؤمن: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.
إن يمسسكم قرح
التداول: حيث أنّ الله لا يضمن بقاء الأحوال والأمور على ما هي عليه لأحد من الناس.. ذلك لأن الدنيا دار عمل واشتغال وتضحية (بناء وهدم) له بداية ونهاية، وليست دار نعيم مقيم أبدي.
الهزيمة والنصر: النصر والهزيمة ليس أيٌّ منهما قدرًا لازمًا، فإذا انتصر المسلمون عليهم أن لا يغترّوا بهذا النصر ولا يغفلوا عن قدرة الله على إدالة السلطة منهم إلى غيرهم.
التداول والتفكر: بإعادة النظر في الأدعياء الذين يسقطون في متصف الطريق عند أوّل امتحان وهو التمحيص
شروط التداول وقيوده
الظلم والطغيان: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ من قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.
المعصية والتمرّد: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا من قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾.

● **خامساً: سنّة الاستبدال التاريخي:**

﴿إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ﴾[التوبة: ٣٩].

وهي من السنن المرتبطة مباشرة بمفهوم النصر أيضًا. وقد جاء هذا المفهوم كذلك في القرآن في سياق التكلم عن النصرة والنصر، من هنا فإنّ الربط بين مفهومي الاستبدال والنصر هو ربط قرآنيّ لا ربطًا تحليليًّا وشخصيًّا. ويفضّل الحديث في البداية عن مفهوم الاستبدال لغةً واصطلاحاً في القرآن قبل الدخول في بعض الأبحاث التي ترتبط بهذا القانون الاجتماعيّ القرآنيّ.

١. الاستبدال لغةً واصطلاحاً:

المادّة الأصلية لهذا المفهوم هي الأحرف الثلاث الآتية: الباء والدال واللام. و تعني ترجيح شيء على آخر. وقد جاء هذا المفهوم في آيات كريمة عديدة، ومنها ما جاء في سياق التكلم عن بني إسرائيل في قوله عز وجل: **﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾**[البقرة: ٦١]. وهذه الآية فيها استهجان واستنكار لكل من يفكر باستبدال الأفضل بالأسوأ أو اتخاذ من هو أدنى وأقلّ قيمةً بديلاً عن الذي هو خيرٌ وأفضل وأرقى وأحسن قيمة ومسؤولية. وهذا المعنى لكلمة «بدل» هو حاصل ما يتبنّاه علماء التفسير وأهل اللغة.. وهذا التفسير قد يوحي بعدم وجود فرق بين

مفهومي: التداول والاستبدال؛ ولكن يكشف التمعن في الكلمتين عن شيء من الفرق بينهما يتّضح بعد البحث عن فلسفة الاستبدال.

٢. فلسفة الاستبدال الإلهيّ كما وردت في القرآن الكريم:

إنّ فكرة الاستبدال تستند إلى أنّ الإنسان (الخليفة) مخلوق على هذه الأرض بأمر الله وإرادته، واقتضت حكمته تعالى أن يكون خلقه كله منزهاً عن اللغو واللا معنى وعن العبث.. يقول عز وجل: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ**﴾[الأنعام: ٧٣]، و﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ**﴾[الأنبياء: ١٦]. ولما كان الأمر على هذا الشكل، فمن المنطقي أن يتم طرح أسئلة أساسية مفهومة عن العلة والحكمة من خلق الإنسان، بل عن الحكمة من تسخير كل شيء له في هذا الوجود، بحسب ما تفيدنا الكثير من الآيات الكريمة: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾[لقمان: ٢٠].. طبعاً للإجابة، لا بد من العودة إلى كتاب الله (القرآن الكريم)، فهو يشرح لنا ويعطينا المعنى الحقيقي من وراء عملية الخلق كلها، حيث أنه مرّة يعبّر عن هذا الهدف باسم الخلافة والاستخلاف، كما في قوله سبحانه: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا**

لاَ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٣٠]، وأخرى يعبّر عنه بالعبادة كما قال سبحانه: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾**[الذاريات: ٥٦]، وأخرى ثالثةً يعبّر عنه بقوله عز وجل: ﴿**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾**[هود: ٦١].

لقد أرسلَ اللهُ تعالى الرسل والأنبياء وأنزلَ الكتب السماوية في مدى التاريخ كله، من أجل أنْ يقيموا حكم العدل الذي يريده تعالى، أي تحقيق هدف الخلق في الإيمان وبناء الحياة على قيم وإرادة الله تعالى.. وعلى هذا السبيل الطويل كتب تعالى على نفسه أن ينصر رسله وأنبيائه ورسالاته، وأن يحقّق الغايات التي أرسلهم لأجلها، كما كتب على نفسه أن يحقّق الغايات التي من أجلها خلق تعالى الإنسانَ ذاته.. فإن رفض مجتمع من المجتمعات أو أمة من الأمم أو قرنٌ من القرون -وفق التعبير القرآنيّ- تحقيق الغايات الكبرى التي يريد الله تحقيقها على أياديهم، فإن سنّة الاستبدال ستطبق عليهم حتماً.. وسيتم إحلال قوم آخرين مكان القوم الذين فشلوا في تحقيق ما يراد منهم أن يحققوه من قيم وغايات إلهية كبرى. وهذا هو الاستبدال الذي يأخذ معنى نقل راية الله من يدٍ إلى أخرى، وقد حصل هذا مع الرسول الكريم(ص) عدّة مرّات في حروبه. ومن أشهر هذه المرّات إعطائه الراية إلى الإمام علي(ع) في معركة خيبر بعد أن فشل عدد من الأصحاب في كسر الحصن وفتحه.

٣. معنى الاستبدال في القرآن الكريم:

تحدث الله تعالى في عدة آيات كريمة عن مفهوم «الاستبدال»، كفعل منسوبٍ له تعالى، ومفعوله هو المسلمون، وجاء حديثه في لغةٍ أشبه بالتهديدٍ والوعيد، وكأنّها دعوة إلى المسلمين ألا يحسبوا أنّهم الباب الوحيد لتحقيق إرادة الله سبحانه، بل إنهم إحدى القنوات التي تمرّ عبرها الإرادة الإلهيّة التي ينبغي أن تتحقّق إن أراد الله لها أن تتحقّق، ومن هذه الآيات:

قال سبحانه: ﴿**هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**﴾[محمد: ٣٨].

قال سبحانه: ﴿**إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[التوبة: ٣٩].

والعلاقة بين هاتين الآيتين وبين بحث النصر أمر واضحٌ؛ حيث إنّ كلاهما ورد في سياق التحريض على نصرة الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) وفي صدد حض ودفع المسلمين للإمساك براية التوحيد بشكل قوي.

وقال سبحانه: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**

يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَالِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[المائدة: ٥٤].

٤. تفسير وتحليل آية (مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِه):

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَالِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[المائدة: ٥٤].

الآية الكريمة توجه تحذيراً شديد اللهجة لكل من ينقلب ويرتدّ عن دين الله سبحانه والإيمان به وبأنبيائه وبرسله وبتعاليمه، فلا يطيعه في أمره ولا يطبق شرائعه وأحكامه ولا يتمثل إرادته، بل ويعرض ويتولى ويرفض الملّة الحقّة، فإن الله تعالى سوف يستبدله أو يستبدلهم بآخرين أحقّ بهذا التكريم؛ ممّن ينفتحون على الله في مواقع عبادته ورضاه، ويلتزمون بتعاليم دينه، ولا يتخلّفون عن التضحية والجهاد بجميع ما يمتلكون في سبيله، إنما يقبلون على الجهاد برحابة صدر وقلب مستبشر بلقاء الله تعالى، ولا يخشون لوم الناس والمنافقين ممن يلومونهم عند قيامهم بواجباتهم.

تتكلم الآية الكريمة عن المرتدّين ممن تنبّأ القرآن الكريم بارتدادهم عن دين الإسلام الحنيف. وأتت هذه الآية بقانون عام يحمل إنذاراً لكافة

المسلمين، فأكّدت أنّ من يقوم بالارتداد عن دينه لن يضر اللّه مطلقاً، ولن يضرّ الدين ولا مجتمع الإسلام أو تقدّمه المتسارع، لكون اللّه كفيل بإرسال من عندهم الاستعداد للحفاظ على هذا الدين، إذ تقول الآية: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ**﴾ ثمّ تتطرق الآية إلى مواصفات الحماة ممن يتحملون مسؤولية الدفاع الكبيرة، وتبيّنها على الوجه التّالي:

١. هم يحبّون اللّه سبحانه ولا يفكرون إلا برضاه، فاللّه يحبّهم وهم يحبّونه، كما في الآية: (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ).

٢ و ٣. يبدون التواضع والرأفة والخضوع أمام المؤمنين، بينما هم أشداء وأقوياء أمام العدو الظالم إذ تقول الآية: ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ**﴾.

٤. إنّ همهم الأساسي هو الجهاد في سبيل اللّه، حيث تقول الآية: يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

٥. وآخر صفة تذكرها الآية لهؤلاء العظماء، هي أنّهم لا يخشون لوم بعضهم في طريقهم لتنفيذ أحكام اللّه والدفاع عن الحق، إذ تقول الآية: ﴿**وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ**﴾، فهم بالإضافة إلى امتلاكهم القدرة الجسدية، فهم يمتلكون الشّجاعة والجرأة للتصدي للتقاليد المغلوطة، و الوقوف بوجه الغالبية المنحرفة التي اعتمدت على عددها الكبير في الاستهزاء بالمسلمين.

ويوجد الكثير من الأشخاص المعروفين بصفاتهم الحميدة، لكنّهم لا يبدون الكثير من التحفظ أمام الفوضى المنتشرة في المجتمع وتدفق الأفكار الخاطئة لدى سواد الناس أو من الغالبية المنحرفة، ويسيطر عليهم الخوف ، وسرعان ما يتركون الميدان ويخلونها للمنحرفين، بينما القائد المصلح ومن معه من الأشخاص يحتاجون إلى الجرأة والشجاعة لتطبيق إصلاحاتهم وأفكارهم. و خلاف هؤلاء فالذين لا يملكون هذه الصفات الرفيعة الروحية ، يقفون سدّا ومانعاً دون حدوث الإصلاحات المطلوبة.

وفي الختام تؤكّد الآية أنّ اكتساب مثل هذه الامتيازات الرفيعة (بالإضافة إلى الحاجة إلى سعي الإنسان نفسه) مرتبط بفضل اللّه الذي يهبها لمن يشاء، ولمن يراه مؤهلً لها من العباد، إذ تقول الآية بهذا المجال: (**ذٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ**).

وفي الختام تبيّن الآية أنّ ميدان فضل اللّه وكرمه كبير، وهو يعرف المؤهلين من العباد، كما في الآية: (وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ).

■■■

خاتمة الكتاب

في نهاية الحديث عن النصر الإلهيّ والسنن المرتبطة به وشروطه ، نسأل الله سبحانه أن يستخدمنا في غاياته وأهدافه وأن نكون ممرات تمّر عبرها إرادته وأن لا يستبدلنا بغيرنا. ودائمًا المسلمون مطالبون أن تكون قبضاتهم قوية وراسخة في الدعوة للحق والسير على نهج الله، وأن يحرصوا على الاستعداد الدائم لأية معركة خارجيّة بينهم وبين الأعداء الذين لا يراعون لهم مكانة وحرمة إن هم ظفروا بهم وتغلّبوا عليهم، إنما هم يستغلون الفرص لإنشاب أظافرهم لتخريب كلّ الوجود المعنويّ والماديّ للمسلمين وللإسلام. والحرب مع الأعداء تظل سهلة بالرغم من جميع صعوباتها إذا قيست بالجهاد مع الذات التي هي أعدى عدو للإنسان. ومن تمكن من الانتصار على ذاته غلب الدنيا، ومن خسر أمام ذاته ورغباتها وشهواتها خسر أمام الدنيا وخسر جميع الانتصارات التي حققها.

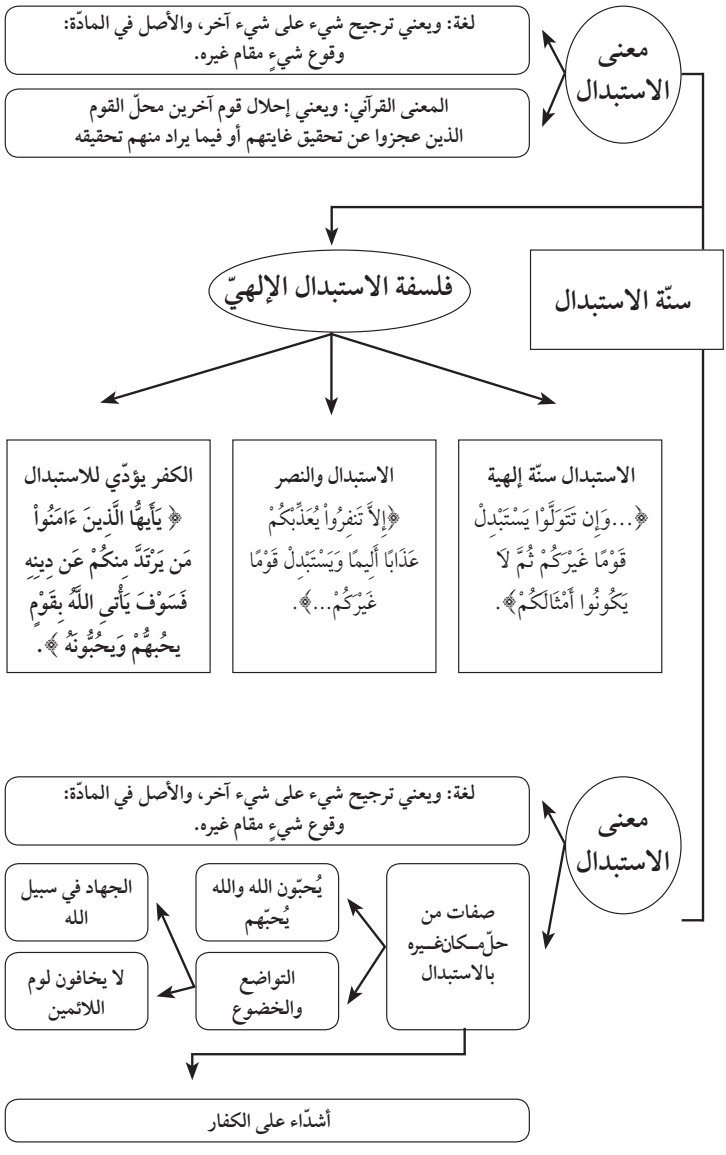
معنى الاستبدال
لغة: ويعني ترجيح شيء على شيء آخر، والأصل في المادّة: وقوع شيءٍ مقام غيره.
المعنى القرآني: ويعني إحلال قوم آخرين محلّ القوم الذين عجزوا عن تحقيق غايتهم أو فيما يراد منهم تحقيقه
سنّة الاستبدال
فلسفة الاستبدال الإلهيّ
الاستبدال سنّة إلهية
﴿...وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾.
الاستبدال والنصر
﴿إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ...﴾.
الكفر يؤدّي للاستبدال
﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾.
معنى الاستبدال
لغة: ويعني ترجيح شيء على شيء آخر، والأصل في المادّة: وقوع شيءٍ مقام غيره.
صفات من حلّ مكان غيره بالاستبدال
يُحبّون الله والله يُحبّهم
التواضع والخضوع
الجهاد في سبيل الله
لا يخافون لوم اللائمين
أشدّاء على الكفار

مصادر الكتاب ومراجعه

١- الإمام علي بن الحسين زين العابدين (عليهما السلام): الصحيفة السجاديّة، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجمعية المدرسين بقم، إيران/قم، طبعة عام١٩٨٢م.

٢- ابن أبي الحديد المعتزلي: شرح نهج البلاغة، الناشر: مكتبة آية الله العظمى مرعشي النجفي، إيران/قم، طبعة عام ١٩٨٦م.

٣- ابن دريد: الاشتقاق، الناشر: مكتبة الخانجي، مصر/القاهرة، طبعة بلا تاريخ.

٤- ابن شعبة الحرّاني: تحف العقول عن آل الرسول، مؤسسة النشر الإسلامي، إيران/قم، طبعة٢، عام ١٩٧٩م.

٥- أبو القاسم الخوئي: منهاج الصالحين، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، إيران/قم، طبعة ٢٨، عام ١٩٨٨م.

٦- أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، دار الجيل العربي للنشر والتوزيع، لبنان/بيروت، طبعة عام ١٩٩١م.

٧- أحمد بن محمد الفيومي: المصباح المنير، المكتبة العلمية، لبنان/بيروت، طبعة عام ١٩٩٨م.

٨- توشيهيكو إيزوتسو: الله والإنسان في القرآن، ترجمة: هلال

محمد الجهاد، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان/بيروت، طبعة عام ٢٠٠٧م.

٩- جعفر سبحاني: مفاهيم القرآن، الناشر: مكتبة الحائري الطهراني، إيران/قم، طبعة عام ١٩٧٣م.

١٠- جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، لبنان/بيروت، طبعة عام ١٩٩٤م.

١١- الحر العاملي: هداية الأمّة إلى أحكام الأئمّة، مجمع البحوث الإسلاميّة، إيران/مشهد، طبعة عام ١٩٩٠م.

١٢- الحرّ العاملي: وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، إيران/قم، الطبعة ٢، عام ١٩٩٢م.

١٣- الحسن بن عبد العسكري: الفروق اللغويّة، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، إيران/قم، طبعة عام ١٩٩٤م.

١٤- حسن مصطفوي: التحقيق في كلمات القرآن، الناشر: بنگاه ترجمه ونشر كتاب، إيران/طهران، تاريخ النشر: ١٩٨١م.

١٥- الحسين بن محمد (الراغب الأصفهاني): المفردات في غريب القرآن، الدار الشامية، سوريا/دمشق، طبعة عام ١٩٩٢م.

١٦- روح الله الموسوي الخميني: كشف الأسرار، دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن/عمان، طبعة عام ١٩٨٧م.

١٧- روح الله الموسوي الخميني: ولاية الفقيه (حكومت إسلامي)،

مؤسسة تنظيم ونشر آثار إمام خميني، إيران/قم، طبعة أولى، عام١٩٩٩م.
١٨- الشيخ المفيد، الاختصاص: دار المفيد للطباعة والنشر، لبنان/بيروت، ط٢، عام ١٩٩٣م.
١٩- عباس القمي: مفاتيح الجنان، مؤسسة الأعلمي، لبنان/بيروت، طبعة عام ١٩٩٨م.
٢٠- عباس حسن: النحو الوافي، دار المعارف، مصر/القاهرة، طبعة: ٤، بلا تاريخ.
٢١- عبد الله العقيلي: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، دار التراث، مصر/القاهرة، طبعة٢٠، عام ١٩٨٠م.
٢٢- علاء الدين بن حسام (المتّقي الهندي): كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، مؤسسة الرسالة، لبنان/بيروت، ط٥، عام ١٩٨١م.
٢٣- العلامة الحلّي: منتهى المطلب، مجمع البحوث الإسلامية، إيران/مشهد، طبعة أولى، عام ١٩٩٢م.
٢٤- فخر الدين الرازي: التفسير الكبير، دار الفكر، سوريا/دمشق، طبعة١، عام ١٩٨١م.
٢٥- فخر الدين الطريحي: مجمع البحرين، الناشر: كتابفروشى بوزرجمهرى مصطفوى، إيران/طهران، طبعة عام ١٩٧١م.
٢٦- الفضل بن الحسن الطبرسي: تفسير جوامع الجامع، مطبعة مصباحي، إيران/طهران، طبعة عام ١٩٥٩م.

٢٧- الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية، لبنان/بيروت، طبعة عام ١٩٩٧م.
٢٨- محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنيّة، مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر، إيران/قم، طبعة ثانية، عام ١٩٩٩م.
٢٩- محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، طبعة مؤسسة الوفاء، لبنان/بيروت، طبعة٢، عام ١٩٨٣م.
٣٠- محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، مكتبة لبنان، لبنان/بيروت، طبعة عام ١٩٨٦م.
٣١- محمد بن الحسن الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، المطبعة العلمية، العراق/النجف، طبعة عام ١٩٥٧م.
٣٢- محمد بن الحسن الطوسي: الخلاف، مؤسسة النشر الإسلامي، إيران/قم، الطبعة الثانية، عام ١٩٩٩م.
٣٣- محمد بن الحسن الطوسي: المبسوط في فقه الإمامة، دار الكتاب الإسلامي، مصر/القاهرة، طبعة أولى، عام ١٩٩٢م.
٣٤- محمد بن الحسن الطوسي: النهاية ونكتها، مع تعليقات العلامة الحليّ، طبعة: انتشارات قدس محمدي، إيران/قم، طبعة بلا تاريخ.
٣٥- محمد بن جرير الطبري: دلائل الإمامة، مؤسسة البعثة، إيران/قم، طبعة أولى، عام ١٩٩١م.
٣٦- محمد بن عبد الله (الحاكم النيسابوري): المستدرك على

الصحيحين، دار الكتب العلمية، لبنان/بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

٣٧- محمد بن علي ابن شهراشوب: مناقبُ آل أبي طالب، المطبعة الحيدرية، العراق/النجف، طبعة عام ١٩٥٦م.

٣٨- محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، الناشر: مطبعة الخيام، إيران/قم، طبعة عام ١٩٨٣م.

٣٩- محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة الإسلامية، ترجمة: هاشم محمد، رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية، إيران/قم، طبعة ١٩٩٧م.

٤٠- محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان/بيروت، طبعة عام ١٩٩٧م.

٤١- مصطفى جمال الدين: البحث النحوي عند الأصوليّين، دار الهجرة، إيران/قم، ط٢، عام١٩٨٣م.

٤٢- ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، إيران/قم، طبعة أولى، عام ١٩٨٨م.

الفهرس

المقدمة ٥

الفصل الأول ٧
النصر في القرآن الكريم (مفرداته ودلالاته المعجمية)

- أولاً- الغلبة ٩
- ثانياً- الفتح ١١
- ثالثاً- الفوز في القرآن الكريم ١٣
- رابعاً- كلمة الظفر في القرآن الكريم ١٤
- خامساً- كلمة ظهر في القرآن الكريم ١٥
- سادساً- مفردة النصر في القرآن الكريم ١٦
- سابعاً- عندما يكون البلاء طريق النصر ١٧

الفصل الثاني ٢١
النصر في القرآن الكريم (مفهوم ومصطلح)

- أولاً- معاني النصر ودلالاته في القرآن الكريم ٢٢
- ثانياً- المعنى الجوهري للنصر ٢٧
- ثالثاً- في حقيقة النصر وبعض مصاديقه العملية ٢٩
- رابعاً- أهداف الحربِ والجهاد وغايتهما 30
- خامساً- النصر في المَدى الزمني البعيد ٣٣
- سادساً- عقد العزم على الثبات والمواجهة ٣٤

الفصل الثالث ٣٩
موقع النّصر في ذهنية المجاهدين وحساباتهم

- أولاً- قيمة ومعنى «إحدى الحسنيين» الواردة في كتاب الله ٤٠
- ثانياً- موقعية النصر في القتال ٤٣

الفصل الرابع ٤٩
نسبة النصر إلى الله (في المعني الفلسفي والعملي)

- أولاً- كيفية نسبة بعض النعم إلى الله كما وردت كتابه العزيز ٥٠
- ثانياً- نسبة النصر إلى الله ٥٢

الفصل الخامس ٦٣
النصرُ كسنّةٍ وناموسٍ تاريخي واقعي

- أولاً- نماذج حية من القوانين والسنن القرآنية ٦٤
- ثانياً- نواميس النصر الإلهيّ في كتاب الله.. في المعنى والمقاصد العملية ٧٢

الفصل السادس ٨٥
أسباب النصر ودوافعه

■ أولاً- أسباب النصر المادية ٨٦
■ ثانياً-الأسباب المعنويّة للنصر ١٠٢

الفصل السابع ١١٣
النصر ومعنى المدد الغيبيّ

■ أولاً- المدد الإلهيّ.. شروط وأنواع ١١٤

الفصل الثامن ١٢٧
القوانينُ والسّننُ التّاريخية المُرتبطة بقضيةِ النّصر

■ التنازع والانقسام ١٢٩
■ المعصية والمخالفة للأوامر ١٣٠
■ تولّي غير الله من الأصنام الأرضية ١٣٠
■ انقلاب القيم والمفاهيم القيمية ١٣١
■ تسريب الأسرار وعدم الكتمان ١٣٢
■ إلقاء السلاح وترك الحذر ١٣٣

الفصل التاسع ١٣٧
القوانينُ والسّننُ التّاريخية المُرتبطة بقضيةِ النّصر

■ أولاً: المبادرة كشرط لتحقق النصر ١٤٠

■ ثانياً: سنّة التداول ١٤٠

■ ثالثـاً: مع آية ﴿إِن يَمْسَسْـكُمْ قَرْحٌ﴾.. ..... ١٤٢
في تحليلها والعبر المسـتفادة منها

■ رابعاً: شروطُ التّداول وموانعه ١٤٤

مصادر الكتاب ومراجعه ١٥٧

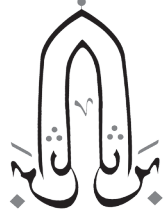

مركز براثا للدراسات والبحوث

هو مركز بحثي مستقل غير ربحي، مركزه في بيروت وبغداد. ويهدف لفتح المجالات العلمية والاكاديمية الواسعة، أمام الباحثين والمتخصصين؛ للقيام ببحوث تسعى إلى فهم واقع الإنسان والإنسانية، من خلال التركيز على دراسة الميادين الفلسفية، والاجتماعية، والإنسانية المتنوعة، التي تشكّل في مجموعها ذلك الحراك الاجتماعي والانساني الكبير، الحاصل في العالم، وخصوصا في بلادنا العربية والإسلامية؛ ورصد الظواهر والتحديات الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والنفسية المختلفة، التي يمكن أن يواجهها الفرد والمجتمع، ومحاولة فهم ومدارسة الأسس الفلسفية والإجتماعية والدينية التأصيلية بموضوعية وجدة، سعيًا للوصول إلى حلول لها؛ من أجل السمو بالإنسان وتقدّمه في أبعاده الإنسانية المختلفة.

عن هذا الكتاب

يعيش الانسان طوال حياته في مجموعة من الصراعات، منها الاجتماعية ومنها السياسية ومنهـا الأخلاقية، وفي مختلف هذه الصراعات يضع نُصب عينيه تحقيق النصر. ومن الواضـح أنّ هـذا المفهوم هو من المفاهيـم المحورية التي وردت كثـيراً في الكتاب والسـنّة. وقد دارت حوله الكثير من النقاشـات وصلته بالله، وهل هـو غاية وهدفًا أم طريقـاً من أجل تحقيق أمر آخـر؟ وهل هو من نِعَم اللـه أم نتيجة للمجهود البشري؟ واسـتناداً إلى أنه أحد النعم فما القوانين التي يكون خاضعاً لها ويتحقّق على أساسـها أو يتم الإسراع في تحقيقه أو يتم تأخيره بل يتم حرمان الإنسان منه؟. وأخيراً ما الآفات التي بإمكانها أن تطال النصر وتعمل على إبطال تأثيره؟ تلك الأسـئلة وسـواها الكثير سـتكون موضع الاهتمام في الكتاب الحالي؛ بالبحث والتدقيق والمقارنة والاستنتاج، وذلـك اعتماداً على الآيات القرآنية الكريمة التـي تناولت موضوع النصر وما يتعلق به من دلالات ومعان بشكل أسـاسي، وبمنهجية علمية تقوم بالجمع بين العمق العلميّ في الاستدلال والمضمون، مع الحفاظ على دقة وسهولة التعبير.

• الدراسة لا تعبر بالضرورة عن رأي المركز •

مركز تراث للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد